عالم الفلسفة والعرفان

البرزخ والروح بين الإلهيين والماديين

محمد رضا كاشف الغطاء

دار العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: البرزخ والروح بين الإلهيين والماديين
تأليف: محمد رضا كاشف الغطاء
الناشر: دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع
طريق المطار/ سنتر زعرور - ط٤
تلفاكس: ٠١/٤٥٠٥٨٠ - ٠٣/٨٥٣٥٧١
إخراج: مركز دار العلم للدراسات

الطبعة الأولى
بيروت - ٢٠٠٢

البرزخ والروح

بين الإلهيين والماديين

محمد رضا كاشف الغطاء

بيروت - ٢٠٠٢

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

صدق الله العلي العظيم

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة على من لا نبيّ بعده والسلام على آله الحافظين عهده وبعده فقد نحوت فيما حرّرت في هذه الأوراق الأسلوب العلمي ولم أذهب في تحريره مذهب الشعر والخطابة إلاّ ما يأتي عفوا مما يكون غرضي منه أن أُشحذ قريحة الناظر فيه، واذهب به من المتاعب العقلية إلى ما ترتاح إليه النفس من خيال رائق، وكلمة مستملحة، وفريدة شاردة ليستجمع استعداده تارة أخرى في استجلاء الحقائق واستشعار أسرار الدّقائق للفلسفة اليونانية في القرون الوسطى الإسلامية مواقف مشهورة سجلّها التاريخ مع المتألهين ورجال الدّين وقد مرّت قرون وذلك الخصام النظري والصراع الأدبي قائم بين أولئك الفلاسفة ورجال الدّين، وقد تطرف كل من الفريقين في مبادئه وحدثت انقسامات كثيرة، وظهرت البدع، وتطلعت رؤوس الإلحاد، وعبرت الباطنية حدود العقل، وتداخلت السلطة الحاكمة في كثير من الأحوال، ومنى الناس من ذلك بويلات وأهوال.

والفلسفة اليونانيّة مع تلك الشؤون والشجون التي عرفها كل ناظر في تاريخ تلك القرون أهون وطأة على كاهل الدّين من هذه الفلسفة الحديثة

التي زعزعت أركان تلك الفلسفة ونقضت دعائمها. فإنّ الفلسفة اليونانية القائمة على أساس النظريّات المحضة تعترف بمجموعها بما وراء الطبيعة، وتتفق في أساسها ومبادئها الأوّلية مع الخلاصة الأوّلية للدين. وفي آخر أدوارها نبغ من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم من استطاع التوفيق بينهما، وفي الأعصر الأخيرة لكثرة تداول بعض نظرياتها كاد أن يكون بعضها معتبرا كعقيدة دينية إلاّ إن هذه الفلسفة الماديّة البحتة الّتي لا تؤمن بغير المنظور، ولا تعترف بغير المحسوس كانت مصيبتها أدهى وأمر.

وإذا كلفنا عقولنا أن تّتصل بالملأ الأعلى عن طريق الحواس فقد ارتكبنا شططا، وكّنا كمن كلف الأسماع أن تدرك ألوان الأزهار، والنواظر نغمات الأوتار. ومع هذا فقد صمد إليها أساتذة فطاحل ممن دِيّثَ في قلوبهم الإيمان، والتاط في دخائلهم وحي الأزلية، وغار في أعماقهم حس السرمدّية، ففتحوا للمادة الجامدة العمياء عيونا لمشاهدة الملكوت الأعلى، وكشفوا منها وفيها جهازا تلمس به الحقائق الإلهية، وعبروا من الطبيعة إلى ما وراءها، واستخدموا النواميس المادية حجة دامغة وآية بالغة على مبدع الناموس ومكونه. وهكذا تمّشى الّدين مرعي الجناب جنبا لجنب مع هذه الفلسفة الأخيرة.

والّذي دعاني لتأليف هذه الّرسالة هو ما أذكره لك في سبب تأليفها، وهو يخص فرعا من فروع الدين ليس له ذلك الشأن مما لا يعتبر أساسا في قوام الّدين إلاّ أنّ ما يكتنفه مما لابد منه في إثباته من أقوى دعائم الدين وقد توّصلنا لإثباته من طريق هذه الفلسفة، وهذه الفلسفة الّتي

يصح لنا أن نسمّيها الفلسفة الأوربيّة فإنها في أوربا نشأت ونمت، ومنها تفرّعت. وكان أثرها السيء في الشرق أعظم منه في أوربا نفسها، فأن رواتها وحملتها إلينا جعلوها أساسا لكل جلال وإبداعاً أوربياً مادياً، وأصلا تستباح به كل عصمة أدبية، واعتنقها جماعات فينا وافقت أهوية في نفوسهم، وتطرّفوا في مناهجها الأدبّية إلى الغاية.

وهذا المبلغ الشائن والسمعة السيئة في الملكات والآداب والعقائد الإلهية للأمم الأوربية عندنا إنما هو رواية قوم نزقين طائشين غلّتهم القيود الأدبّية، ولزمتهم عن شهواتهم الحدود الشرعية، ففرّوا متمرّدين إلى دعارة الإلحاد ومضارب الشهوات، ومندفعين بنشاط تشبّها وتقليدا لمزايا جلّها مكذوبة وأغلبها مفتعلة.

ولا أنكر أن في أوربا من استباح الموبقات الأدبية، وغشى معاصم الّدين، وسوّد الصحف والأسفار، وعضد مبادئه جهد المستطاع بوسائل ماديّة وأدبية. وإنّ اكثر ما يتدفق علينا من أوربا هو من هذا القبيل، ولا يزال يتلقف عندنا ذلك طائفة من الشرقيين، ويطبلوّن له ويزّمرون وقد ضعفت بصائرهم، واعتمدوا نظريات هي بعد في مولدها ناقصة مبتورة مشكوك في صحّتها، وفاجئوا بها الأمم الشرقية كقضايا صحيحة مسلّمة اتّفقت عليها آراء فلاسفة العصر الحاضر، ونسبوها لأعلام أعجمية ضخّموا ألقابها فبهت لها الشرق في مبدأ الأمر، ورجفت منها العقائد ريثما نصع الحق وظهر الباطل. ودرست تلك النظريات في معادنها، وعلم الّراشدون وأرشد المهتدون أن ما صح منها وعضده الاستقراء والاستنتاج

العلميان هو والدين عدوة واحدة، وسبيل لغاية غير متعدّدة. ولا أنسى أنا مفعولها في نفسي، وكم حسبت أنا وحسب غيري أن ليس في أوربا مشعر ولا معبد، وليس للدين فيها وزن ولا معهد، إيمانها الإلحاد وعصمتها القوانين المدنيّة كلّ ذلك جرّه عصبة من دعاة تلك النظريات الّتي اقتبسوها ممن هم أمثالهم ممن يرون أنّ كلّ حديث لأنه حديث خير من كلّ قديم لأنه قديم.

هلّم جدّي ودعى تعديدك ليغلبنّ خَلَقي جديدك

ومن غواة غلبتهم على بصائرهم ما شاهدوه من البوادي والظواهر في بعض العواصم الأوربية، وما سمعوه من مدهشات الاكتشافات والاختراعات وفاتهم إن في أوربا من وراء ذلك شعوبا هادئةً مطمئنة خاشعة لما ينتهي إلى الأيمان بخالقها ومبدعها هي الماسكة على قوام الأمم الأوربية، وهي دعامة حركاتها الاجتماعية ومنشئاتها العمرانية، ولا تجدن فيها قرية ولا ضاحية ولا جزيرة منقطعة ولا حاضرة كبرى ولا عاصمة من عواصمها إلاّ والمشاعر الّدينية والمعابد الإلهية من أعظم مؤسساتها وأفخم منشئاتها، ويكفي معرفة بالحس الديني في أوربا التجاء الشعوب المتحاربة في الحرب الكبرى إلى الفاتيكان وأشخاص ممثلين لهم فيه.

وقد خالط العراقيون قسماً من السواد الأوروبي في أيام الحرب فوجدوه متصلباً في عقائده غير متسامح في فروضه الإلهية وهو جند في خطط الحرب.

الاكتشافات والاختراعات

براهين على عظمة الخالق

وأما الاكتشافات والاختراعات وافتضاح الأسرار الطبيعيّة فكل ذلك لا يكون من قبيل الإيجاد والإبداع، وإنما هي معرفة لما هو كائن في الطبيعة منذ كوّنت وفي الخليقة عندما ابتدعت. فهي براهين وآيات جديدة لم يظفر بها المتقدّمون على عظمة خالقها ومبدعها فكيف يتخذّ ذلك من زلّت بهم أقدامهم وطوحت فيهم أهويتهم حججاً للإلحاد وبراهيناً على الجحود.؟!

النجف الأشرف والنظريات المادية

وللنجف الأشرف - العاصمة الكبرى الدّينية في الشرق الأدنى - شأن يذكر في درس تلك النظريات ودحضها لم نجد مثله في معاهد العلوم الدينية غيرها حتى الجامع الأزهر، فمنذ وعى حس هذه النظريّات في النجف الأشرف والعهد قريب وسمع صداها فيها قام إليها جماعة من أذكياء العلماء المتبحّرين، وفحصوا ومحصوا وشحذوا العزائم في نقدها وردها وكم صادفوا عناء في أخذها من منابعها ومصادرها، وقد كانت غريبة فيهم بجميع جهاتها في لغتها وأدلتها ومنهج التفكير فيها. ويعترض ذلك عناء آخر وهو مراقبة المحيط، فقد مرّ زمن هنا في النجف الأشرف وسؤره باقٍ إلى الآن يرى فيه إن اقتناء بعض المؤلفات ومعرفة بعض اللغات والتفوه ببعض الكلمات إلحاد وزندقة، وما أشد الإلحاد والزندقة على المهتم بها في بلاد دينية بحتة كالنجف، فقد كان أولئك العلماء يخشون من الدين في صيانة الدّين كل هذا، وأنا أستطيع أن أحصى العشرات مما ألف فيها، وفي تاريخها ومآخذها ونقدها وموافقتها للدين ومخالفتها له من مؤلفات عربية وفارسية.

والنجف الأشرف مع ما يوجد فيها من الثراء العلمي الطائل لا يوجد فيها من أسباب النشر ومعدّاته إلاّ الشيء التافه النزر، ففيها عدد كثيرة من المؤلفات مكظومة، ومادة غزيرة من المعارف مكتومة، والسير العلمي

في مدارسها القديمة غريب ومنقطع النظير، وربّما أمّها الغريب للوقوف على حالتها العلمية فيخرج منها كما دخل ما لم يتعمّق في معاشرتهم ويندمج في زمرتهم، وهاأنا أروي لك مستطرداً شيئاً من سيرها العلمي ومنهاجها في دروسها العالية الدّينية لتقف على ما لاقاه ويلاقيه هؤلاء العلماء في تحصيل معارفهم وعلومهم من المتاعب والعناء، هذا في علومهم المقدّسة في محيطهم فكيف بما كان يعد من قبيل الإلحاد والزّندقة؟.

منهاج التدريس في النجف الأشرف

للتدريس في النجف الأشرف نمط منفرد وطراز لا يُشْبِهُهُ نظام فيما وقفت عليه من مناهج التدريس وأنظمته في سائر أقطار العالم. وهو الذي أُسمّيه (بالتدريس الفردي) فإنّ التلميذ الذي يتخصص لطلب العلوم الدينّية يتدرج وحده في مراتبه العلّمية وفي دروسه وأساتذته من دون أن يندمج في صفوف أو يتحكم في أرادته نظام. نعم جميع هؤلاء المشتغلين بتلك العلوم يتفقون على وضعية واحدة تركها لهم سلفهم هي قراءة كتب معيّنة مرتّبه، وقد يظهر مؤلف لأحد علمائهم الذين نبغوا وبرعوا فيتخذ له قرار أو درجة في سلسلة كتب التدريس كما حدّث في بعض المؤلفات الأصولية والفقهية. وليس عندهم امتحان ولا شهادة ولا درجة مقرّرة.

والطالب النابغ فيهم هو ذلك الذي يعترف له ذوو الفضل بالفضيلة بعد الاختبار بالمذاكرة والتدريس والتأليف، ويعجبني من هذه الطريقة شيء واحد وهو انّه لا يجوز عليها تدليس، فلا يمكن أن تنال الدرجة الأخيرة فيها أعنى درجة الاجتهاد بغير الكفاية الحقيقيّة والكفؤ الحقيقي هو المجتهد وغيره متشبّه.

وعناء آخر يعترض التلميذ في سيره العلمي وهو إنّه لا توجد في نوع المدارس الدينّية في النجف الأشرف ولعامة طلبتهم رواتب ومرتّبات تكفل

معيشتهم إلاّ من شذّ، وقد أجهد بعض علمائهم أنفسهم في أن يعدّوا مما تدّر به عليهم الشيعة رواتباً لجملةٍ من الطلبة تسدّ نفقاتهم، وقد فشل بعض ونجح قليل، والمحتم على الطالب منهم ما لم يكن له مرتزق يعتمده أن يتجلبب من الصبر جلباباً يقاوم به عناء الدرس ومشقّة الفقر، ويكون مرتزقة من الصدف والاتفاقات وبهذا يجمع عليه أمْرَين أمَرَّيْن.

والنجف الأشرف من جملة العواصم العلميّة الّتي لها مبلغ عظيم من الاشتهار في سائر الأقطار، ولكن هذه العاصمة الكبرى الدينيّة إذا دخلها المتجول الغريب لا يرى نصف العشر مما يسمع، والمدارس الّتي فيها هي مساكن للطلبة ليس غير. وقد تمرّ عليه الأسابيع والأشهر ولا يرى أحدا من هؤلاء المنكمشين في كسر بيوتهم البارعين المتفننين الجهابذة القديرين في جملة المعارف والعلوم الشرقيّة وذلك لما أوضحته لك من منهج التدريس عندهم فلا صفوف ولا مناهج ولا مرتّبات ولا رواتب، ولاشيء مما تجري عليه المدارس في جملة بلاد العالم فيخرج وقد حسب أن الأمر بعضه أو كله مبالغة وخداع.

وعلى المجتهد أن يجمع بعد هذا خلال الخلافة الإلهية ومزايا العصمة المحمديّة، ويشتري أخراه بدنياه وأجله بعاجله، ولا ينال ذلك ألاّ ذو حظ عظيم وفّقنا اللّه وإخواننا لما فيه رضاه.

سبب تأليف الرّسالة

صحبت يوماً قدوة[١] من أكابر الفقهاء الرّوحانيين ومجتهداً من أعاظم الإلهين لزيارة زعيم من زعماء العراق نرتبط معه بأواصر محكمة ووشائك مبرمة، ورثّتها الآباء وعقدها السلف لأداء واجب عزائه عن فقيد له تغمدّه الله برحمته، وبعد أداء مراسم العزاء والمجاملة دار الحديث وتحوّل وتقلّب وتبدّل في محفل حافل، وكانت المحاورات كلها دينية روعي فيها شأن المتبوع الدّيني، وفي أثناء ذلك وجّه ذلك الزّعيم سؤالاً حلّله إلى جملة مسائل تتفاضل غموضاً وإبهاما تتعلق بأمر البرزخ وتفاصيله وعذاب القبر وما يلحق به مما سأورده لك مفّصلا نحو ذلك المتبوع الديني فتفّضل أدامه اللّه حجة بالغة وصراطاً ومحجة واضحة بجواب مجمل مقنع، أوجز فيه البيان بما هو الغاية في تلك العجالة. ثم تلقف تلك المسائل الحاضرون وعالجها الجالسون وأذعن الجميع إنها من غوامض العلم وأسراره، وجاء الدور إلي فقلت: إن أمثال هذه المسائل لا يطلق حلّها بالمحاضرات المحدودة، والمحاورات الموقتة المعدودة. وإني مستعدّ ومتبرّع بعونه وحسن توفيقه أن أكتب في حلها ما يبرد الغلّة ويشفي العلّة إن شاء اللّه تعالى.

---

(١) هو والد مصنف هذا الكتاب.

وانحلّ عِقْدُ الجمع وانصرفنا على ذلك الوعد وإليك أيّها القاري أسراراً غامضة ترفع حجابها البراهين المتقنة وتنير دياجيها الآيات البيّنة إن شاء اللّه تعالى وبه نستعين ومنه التوفيق.

مدخل الشبهة

العقيدة الرّاسخة الّتي لا يسعنا إنكارها، والّتي تظافرت عليها النصوص الدينّية والأنباء الإلهية، واتّفقت عليها الديانّات العالمية الكبرى، وصدع بها محكم التنزيل إنَّ بين النشأتين برزخاً يفصل بين حياتين زائلة فانية وأخرى أبدية خالدة، وإنَّ اللّحد والقبر يدخل فيه الإنسان من دار الزّوال والفناء ويخرج منه إلى دار الخلود والبقاء، وهو فيه أمّا معذّب أو منعم.

الإقبار في بعض المواضع المقدسة يدفع عذاب القبر

والفرقة الإماميّة من المسلمين تعتقد أنّه إذا فاز بجوار أحد المراقد المطهرّة، وأغتنم إقباره في بعض المواضع المقدّسة يدفع عنه ذلك العذاب. وكلما نذكره من الشكوك والشبهات إنما يلزمنا حلّه إذا آمنّا بما يؤمن به الإلهيون كافة مما يكتنف حال البرزخ من الاعتقاد بأن للإنسان في نشأته الأولى روحا أودعها بارئه في غلافه المادّي ومجموعه الجسمي ليست هي من سنخ المّادة. ومن الاعتقاد بأن له نشأة ثانية وانّه تعالى يعيده كما بدأه تارة أخرى. فالروّح والمعاد هما أساسا هذه العقيدة وركناها وتلك اللطيفة الإلهية الّتي هي المعنى الإنساني ترفع من ذلك الوعاء المادّي وترجع إليه كما فارقته يوم حشره بأمرٍ من بارئ النسم والقيوم في الأزل.

فمن أنكر المعاد وجحد يوم التناد فقد أنكر البرزخ. فأن البرزخ باب الخلود ومجاز الديمومة والبقاء، وطريق مشهد يوم الجزاء، ومن أنكر الرّوح وأعتقد أنّ الإنسان لحم وعظام وأوردة وشرايين ومسالك مائلة لدماء سائلة ليس في قوامه إلاّ مادّة جامدة وعناصر متساندة ركبت في

أجهزة مدبّرة بمقادير مقدّرة مسخر في بنائه لنواميس مادية، ومسيّر في صميمه لقوى طبيعية لم يستودع سراً ولم يكن لشهوده المحدّد غيب مجرد، والحياة مظهر تلك القوى وحركة ما ظهر واختفى، وليس الموت إلاّ ان تنفلت تلك القوى عن موادّها، وتسكن تلك الخلايا في قرارها بعامل طبيعي ودافع مادي، وإذا اعتقدنا ذلك فلا يمكن لنا إن نعترف بأهوال القبر وعذابه ونعيمه وثوابه فهل للجماد نعيم وللحجارة جحيم؟ وهل يصح لعاقل أن يسخط على جنادل الوادي فيوسعها ضرباً ويقاومها حرباً إلاّ أن تستأنف له الحياة ويبتدأ له الخلق؟ ويكوّن في أرحام اللّحود من دون أن يمرّ في أصلاب الآباء والجدود فتنبض عروقه ويخفق قلبه وتنفتح منافسه وتعود دوارسه.

وهذا أمر لا يضيع على الحواس، ولم يشاهده الناس لابدّ فيه من غذاء وممّا يحتاج إليه في البقاء إذا فرضنا له استمراراً وزماناً، على أنّه خال من الحكمة وليس فيه معنى من السداد إذا كان فرضاً محدوداً وعملاً موّقتاً كمثل ومض البرق ووحي الخواطر بحيث يخفى على الحواس، وكيف يجمع عليه الحساب والثواب؟ ومتى يكون الاستجواب والجواب؟ والفرصة اقلّ من آن، وأدنى من عشر الثانية من الزمّان، وغير العاقل هو الذي يستطيع أن يعتقد غير المعقول ويؤمن بالمحال.

والخلاصة إن عقيدة البرزخ لا يمكن أن نعتمدها ونؤمن بها ما لم نؤمن ونعتقد بالروح والمعاد، وسنقيم عليهما البراهين المادّية والنظريّة والعقيلّة والحسيّة وبعد ذلك نعود لمورد الشبهة ونقطة البحث وبعونه

الأسئلة وتحليل الشبهة في البرزخ

من بعد ذلك الإيمان والاعتقاد تتوّجه ألينا تلك الأسئلة وهي إنَّ تلك الرّوح الّتي هبطت من الملأ الأعلى وأفاضها المبدأ الأول فخالطت المادّة، وتعلقت بمقادير يسيرة من مختلف العناصر المادية، وأصبح ذلك المزاج المؤلف من كثافة المادة ولطافة المجرد أنساناً يتصل بالملكوت الأعلى وبما وراء الطبيعة بتلك الوديعة الإلهية، ويقترن بالطبيعة الجماديّة المحدودة بعناصره الماديّة حساساً مدركاً مكلّفاً.

فلو جردناه عن ذلك المعنى الغيبي تلاشى في المادّة واندمج فيها وعادت عناصره الجسميّة إلى قرارها الأول.

والجسم المجرّد عن المجرد جماد صلد وحجر صمد لا تضره كظة الأرض، ولا تصقعه مقامع النار، وما الموت إلا فرار الروح من الجسد وانقطاعها عنه وإن لم تنقطع عنه واستمر حياً على حدّ سائر الأحياء فلماذا قبرناه؟ ومن ثيابه جرّدناه؟ وعن نعيمه قطعناه؟ وفي حفرة ضيقة دسسناه؟؟.

ونحاشي العدل الإلهي والعقلاء كافّة أن يتفقوا ويشرع للناس أمناء الوحي وخزّان العلم هذا الظلم الفاحش والجور الشائن وإنّ مات كما هو مفهوم العبارة ومؤدى الكلمة وذهب المعين إلى معدنه، وحلق الطائر عن

وكره، وانطفى السراج، وبات رمّة هامدة وحثالة راكدة، واختطفت الأبدية ذلك الجوهر البسيط فما بالنا ونحن مسخرون بإرادات ملكوتيّة ومتأثرون بمفعول وحي مبين أن نظل عاكفين على هذا الجماد البالي وحسبه أن يترك أنات معدودة فيتفرّق من حيث أتلف، ويعود إلى أصله مستعداً لأن ينطمس في جملة ما يتكون شجرةً مثمرة أو حجارة مبعثرة.

وإنما يلزمنا أن نلتقي منه المكاره والعفونات، وهل للحجارة لذّةٍ وألم وسعادة وشقاء ونعيم وجحيم، وإذا لم تكن هناك لذّات وآلام فكيف يكون الثواب والعقاب؟ إنما وضعنا في التراب تراباً، ولحدنا الحجار بالحجار، وأختطف الحس والإدراك باختطاف ذلك الجوهر البسيط، ولا يساعدنا النص الديني ولا الوحي الإلهي أن نقول إن الثواب والعقاب واقعان على مثار الحس والإدراك ذلك الجوهر البسيط والّروح الإنساني، فإنّ الأخبار صريحة في أنهما واقعان على هذا الجسم، وحسبك شاهداً أن من أعظم أهاويل القبر كّظة الأرض، والمجرّد لا يكتظ ولمن يكون استجواب منكر ونكير في القبور؟ وما شأن فتانها؟ وهل تنطق صخرة الوادي وحصاة البوادي؟ وإذا كانت الأرواح هي المسؤولة فلماذا كانت الأجسام في النعوش منقولة؟ والمجرّد لا يحويه مكان ولا يحده زمان وقد أنكرنا بهذا ثواب القبر وعذابه.

وإن قلتم إن الرّوح تعود إليه في قبره، وتتسرب له من منافذ لحده وهنالك النار يعرضون عليها غُدوّاً وعَشيّاً أو يفسح له في قبره ويكون روضة من رياض الجنّة وتقوم الملائكة المقرّبون بأمره. فهذا لا يساعد

عليه الوجدان والعيان، وليس له شاهد ولا برهان. فلو كشفنا عنه التراب وعكفنا عليه ألفا من السنين لم نجد منه ألا تغلغلاً في الزوال وترامياً في أعماق الفناء. ولم يشاهد منذ الخليقة إنسان أنسانا شخصَ من قبره وعاد حيّاً سويّاً في مستقرّه. فهذا جملة ما أشكل حلّه وصعب فلّه وسأوافيك بمسالك البصائر، وأرفع لك أستار الحقيقة ستراً ستراً إن شاء اللّه تعالى.

وبما أوضحناه قد رسخ في عقيدتك وأشتبك في طيات جَنانك أن هذه العقيدة إنّما تعقدت أسبابها، والتفت حبائلها بما لابد من الإيمان به مما هو داخل في قوام المّلة ومغروس في صميمها من الاعتقاد والإيمان بأن للإنسان روحاً وإنَّ له معاداً مطلقاً سواء كان روحانيّاً أو جسمانيّاً وهذان الأصلان وإنْ كان لابّد أن نأخذهما كأصول موضوعة مسلمّة في هذه العجالة إلاّ أن لي فيهما بياناً أرغب أن لا يكون نصيبك منه الحرمان. ولنقدّم الكلام على أهمّهما وما هو سر الحياة في النشأة الأولى وهو الّروح.

الكلام في الروح

تاهت العقول وظلت الأفكار وحارت الألباب في هذا السر الغامض ولم تتوصل إلى حل هذه المعضلة حلا معقول.

وقد أشارت كتب الوحي وأسفار السماء إلى غموضها وإبهامها ولا ننسى قوله تعالى في قرقانه المبين: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾.

فقد أفهمنا هذا النبأ المقدس السماوي أنا لا نستطيع فهمها وإدراكها، والمسألة من أقدم المسائل الّتي عالجها العقل البشري وتنازعتها الفلسفات قروناً طويلة بالسلب والإيجاب. وهذه القوّة القدّسية مع إنها مودوعة فينا نحن لا نعلمها.

وغاية ما تأتى لعلماء النفس تعريفها بآثارها وأعمالها. والمعروف من تعريفها إنها قوّة أودعت فينا بها يكون وجداننا وتفكرنا وأرادتنا، وكما أن العقل الإنساني قُصر عن أدراك كنه عدّة من قوى الطبيعة وأعترف بها وعرفها بمشاهدة آثارها كالكهرباء والمغناطيس كذلك هو عاجز عن أدراك حقيقة قوتّه النفسية.

وجهة البحث إنّه هل يوجد أصل في الحياة يكون هو المدّبر الحقيقي والمتصرّف المطلق في الأجسام نسمّيه بالّروح؟ وما هو؟ وأين هو؟ وما

موضعه من أجسامنا؟ وهل يبقى خالداً بعد مفارقتها؟ والشعور من أنّ لنا وفينا أمراً خارجاً عن دائرة الحس كائن من مبدأ الخلقية ولم يزل حتى بين الأمم المتوحشة، ومنهم من أعتبره أمراً ماديا مستقلاً عن الجسد مرناً فرّاراً يلتذُ ويأكل وينتعش بالأنفام، ويغضبه خشن الكلام وإذا نام الإنسان أنطلق من أغلاله واستراح من أصفاده وسبح في الأجواء حتى يتصل بالملأ الأعلى.

وهذه القوّة الغامضة كما يكون الجسم مقهوراً لها ومسخراً بأمرها فهي أيضاً مقهورة من قبله بمعنى أنها لا تستطيع الظهور في كّل جسم من الأجسام. فلو أفضنا الرّوح الإنساني على الحجر لا يكون أنساناً ما لم نؤلفه على الوضع الإنساني حتى في الإنسان نفسه فإنّه لا يكون مظهراً تامّاً لها ما لم يتدرج في نموه حتى تكمل جميع أجهزته العضوية.

سرّ الغموض في المسألة

وسّر الغموض في المسألة أنّا نحاول معرفة الحقيقة عن طريق الإدراك والحس، وأن تعترف بها عقولنا المجهزة بقوى الحواس الخمس بتلك القوى أنفسها ولا تقتنع بالمنقول مهما يكن ذلك المنقول يقينيّا عند غيرنا، ولا يسعنا الإذعان بأن المنقول عنه مجهز بنوع من القوى العقليّة ليست عندنا مادمنا نحاول القناعة العلميّة ونشعر بالكمال العقلي، والقناعة الجدلية بابها الإيمان والتسليم والانقياد وقد استراح واهتدى المؤمنون من حيث تاه وتعب الباحثون. ومع هذا فالذّي نحاول معرفته من هذا الطريق أمر مجرد عن المنظور والمحسوس تعجز جميع قوانا الإحساسيّة باعترافنا عن إدراكه ابتداء أو بالواسطة. ويمكن لنا أن نقول بعد هذا إن محاولة الاستنتاج بالمحاكمات العقليّة عن ذلك الطريق مناقضةٌ واضحة، والتمشّي حسب الفرض بذلك الطريق يكون سيراً إلى الوراء ومعاكساً للنتيجة المطلوبة وبه نبعد عن الغاية للغاية، فلا بد من صرف النظر إلى ما وراء الطبيعة بإدراكنا المجرّد وبالمحاكمات العقليّة المحضة غير المبنية على أساس مادّي.

وربّما نؤكد الدّليل ونقوي الحجة بما يكون من قبيل الأدلة الحسيّة أو هو الإحساس نفسه ونورد خلاصة من مباحث التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح.

أهم مباحث الروح

عقيدة وجود الرّوح قديمة أعتقدها المصريّون قبل الميلاد بخمسة آلاف سنة والهنود آباؤها وأمهاتها، وكان كونفشيوس مُقَدّس الصينيين وإمامُهُم يعجب بعقيدة الرّوح وهؤلاء كلهّم يعتقدون إنها إذا فارقت وعاءها المادّي دخلت في وعاء آخر لا تعدو عليه نواميس الطبيعة فلا ينحل ولا يتركب وهو ثوب الخلود، وتلك العقيدة حتى الآن باقية والإسهاب في تاريخها يفوّت الفرصة.

والكلام في الرّوح يتشطر إلى مباحث في حقيقتها وفي وجودها وفي اتصالها بالجسد، ولا يهمنا البحث الأول والثالث من غير الوجهة التي تتعلق بالبحث عن وجودها، فقد قال قوم إنها بخار، وآخرون إنها حرارة، وحسبها معشر إنها أثير. وهذه عبارة فيثاغورس هي وحدة قائمة بذاتها وعدد يتحرّك بحركةٍ ذاتيةٍ، وهي الإدراك نفسه. وبعضهم جعلها ذات أركان ثلاثة عاقلة وغضبية وشهوانية. والفيلسوف باكون جعلها ذات ركنين، والفيلسوف ديكارت وحدّها وأعتبرها جوهراً بسيطاً لا مادّة له ولا صورة ويفنى الجسم ولا تَفْنى.

وجاء في كتاب أبي الحسن البقاعّي: «أمّا حقيقتها فهي عند جمهور المسلمين جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم

نوراني علويّ خفيف حيّ متحرّك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم بقي ذلك الجسم مشابكاً لهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإراديّة، وإذا أفسدت هذه الأعضاء بسبب ينافي الرّوح كاستيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق البدن وانفصل إلى عالم الأرواح... إلى آخره».

وهذه الرّواية عن جمهور المسلمين من البقاعي مقبولة إلاّ أن الدّيانة الإسلاميّة لم تعتبر الرّوح تحديداً خاصّاً وإنما صرحت واعترفت بوجودها كأمر ظاهر لا يقبل التشكيك، وفي الحقيقة إنها لم تشرّع الاعتقاد بوجودها وإنما كان الاعتقاد به سابقا عليها، وقد أمضت ذلك ولم تفنده. وهذا التحديد المنقول عن جمهور المسلمين للرّوح الّتي هي أصل الحياة لا يختلف القائلون به وبغيره من أن له في حال الحياة علاقة بالجسد وإنَّ الجسد في حركاته تابع له في انفعالاته، ولكن الآراء تضاربت في كيفية تلك العلاقة وإنَّ تأثيرها فيه هل هو من قبيل التبعيّة المحضة كالصورة في المرآة لذى الصورة؟ وإنّ حركاته تكون عندما تحصل انفعالاتها أو إنَّ هناك اتصالاً وتصرفا بممازجة واشتباك أو إنَّ هناك أمراً ثالثاً مفارقاً للطبيعتين ومبايناً للجوهرين جوهر الروح والجسد هو مشدّ الصلة ومعقد الارتباط، ومنشأ الشك والحيرة هو أن الرّوح والجسد طبيعتان مختلفتان كل الاختلاف فيصعب أن تتحد إحداهما بالأخرى.

وقد صرح جملة من فلاسفة القرون الوسطى أنَّ إدراك ذلك مما تعجز عنه عقولنا.

وهذا البحث معطوف على سابقه كالبحث في إنها موجودة قبل الجسم بنفسها أو في الجرثومة الأبويّة أو إنها تبتدع عند كمال الجسم بجميع أجهزته التي بها قوام حياته لا نضيّع الوقت فيها ولا تهمّنا كما انّه غير ممكن لنا التدليل عليها بالأدلة المقبولة في عصرنا الحاضر ولنصرف النظر إلى لباب هذه المباحث وجوهرها والأصل الذّي إنْ تم هان علينا ماعداه وهو البحث عن وجودها.

إثبات الرّوح

لا ريب إن الفلسفة القديمة المبنيّة على المسلّمات المنطقيّة الّتي كانت موضع تنافس المفكرين والحكماء لا شأن لها في العصور المتأخرة والمعارف الّتي لا تتفجرّ عن المشاهدة والتجربة ولا قيمة لها في النزعة الأخيرة العقليّة ولا درجة لها ولا قسط في المراتب العلميّة.

ويعجبني قول بعضهم إن المنطق آلة خداعة يستعملها المحق والمبطل، وما دام الأمر كلاماً في كلام فلا يعدم المحاول مقالا إلاّ أن الجمود على هذا الحد غلو ومبالغة وعناد، فإنّ من البراهين العقليّة ما هو أصرح عند العقل من مدركات المشاعر ومبصرات النواظر، وللعلماء في وجود الرّوح وما هو سرّ الحياة رأيان، وقد وجدت في بعض دفاتري ومذّكراتي شرحاً لهذين الرأيين أنقله بألفاظه، وقد غاب عن بالي مأخذه فما أدري انّه من جملة الخواطر الّتي أحرّرها فيها أو أنني نقلته من كتاب ظفرت به.

للناس في سرّ الحياة رأيان:

الأول: إن الحياة ليست إلا ما يحدث في الجسم من الميلاد إلى الممات.

والثاني: إن الحياة هي ذلك الوجدان الداخلي غير المنظور.

والرأي الأول قديم جداً يمتد تاريخه إلى ما قبل الطوفان، وليس كما يزعم البعض انّه من مبتكرات العلم المادي والفلسفة الحديثة. وإنا لا ننكر إن العلوم العصرية قد توّسعت في هذا الرأي توّسعاً لا يقبل الزيّادة، ويمكن تلخيصه بالكلمة الآتية: الحياة هي تلاعب قوات المادّة العرضية التي تظهر في الزمّان والمكان مدّةً محدودة كائنة بين أبديتين ليستا شيئاً، أو هي عبارة عن رؤية تظهر وتغيب من آن لأخر دون أن تترك لها أثراً وإما ما نسمّيه حياً فليس هو إلاّ حالة خصوصّية تظهر فيها المادة الميتة.

وأما الرأي الثاني فهو إنّ الحياة هي ما أعرفها في ذاتي وأشعر بها على الّدوام في حالتها الحاضرة مجّردة عما كانت عليه في الماضي، وما ستكون عليه في المستقبل، ومعنى هذا إني شاعر بأنّي موجود وإنّ حياتي لا تبتدأ في مكان ولا تنتهي في آخر، وإن الزّمان والمكان غير مرتبطين بوجدان حياتي. نعم حياتي ظاهرة في الزّمان والمكان ولكن هو مجرّد ظهور فقط إنما الحياة الّتي أدركها بالوجدان لا يتسنى لي أن اشعر بها إلا مجرّدة عن الزّمان والمكان...إلى أخره.

وقد كنت فيما مضى لا اعتمد في هذه المسألة إلاّ البراهين العقليّة المحضة، وقوام عقيدتي في وجود الرّوح كيفما كانت وبأيّ نحو اتصلت، هو الوجدان والشعور العام الذّي يشهد التاريخ إنّه أقدم ما شعر به مدرك، وقد فوجئت بهذا الشعور كما يفاجأ به كلّ أحدٍ غيري وأملته عَلَيَّ الفطرة، ودفعتني إليه الركيزة بلا درسٍ ولا محاكمة عقليّة. ولما عالجت البراهين العقليّة وجدتني في عناء من مقدماتها وأوائلها، ووجدت تلك النتيجة

الفطريّة الإرتكازيّة الّتي خالطتني منذ أوائل الشعور قد بعدت عليّ غاية البعد من هذا الطريق.

وربّما أتساهل في نفسي في الإقناع ببعض المقدّمات لأني شاعر ومعترف بالنتيجة قبل أن أستطيع إدراك هذه المحاكمة العقليّة، ولا أكتمك من أمري شيئاً فإني كنت أحسب أن وثوقي بتلك البراهين إنما نشأ من قناعتي بصحة النتيجة وانّه قد كذبني اعتقادي بصحة تلك البراهين، ومع هذا الشعور المستحكم كنت أرى من الخطأ أن نحاول إثبات ما فرضناه غير محسّ بالأدلّة الحسيّة حتى سمعت حديثيّ التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح، فملكني حب الاستطلاع عليهما، وجذبتني إلى معرفة أسرارهما شراهة لا أستطيع وصفها، وما وعي نغمات إسحاق ولا ترجيعه معبد بألذّ في سمعي من روايةٍ تُروى لي في هذا الباب.

وإذا نظرت في تاريخ مباحثهما ترى انّه قد هزأ بهما جملة رجال العلم وأقطاب الفلسفة العصريّة في مبدأ الأمر، وعدّوهما خداعاً وتعمية، والصحيح منهما داخل في باب الجنون والهستريا، ولكن شهادات فطاحل العلم بعد ذلك بهما واقتناعهم بصحتها حوّرت الآراء والأفكار فأنشأت لهما المجلات وعقدت لهما في الحواضر الكبرى الجمعيات المؤلّفة من سائر طبقات المتخصصين من الفنيين، وأصبح عدد كثير من شيوخ العلم لا يشكّون في صحتهما. والفلسفة الحسيّة الّتي ورثت المقام الأول للفلسفة العقليّة عادت مهدّدة من طريقها نفسها بما استأثرت به

ورأينا بالحس ما وراء الحس.

وقبل أن أذكر لك فذلكة نافعة فيما نحن بصدده من مباحث هذين العلمين لابد من أنّ نقيم أصح الحجج وأقواها وأقومها على وجود الرّوح وإنّه لا يمكن تعليل الظواهر الحيوية بغير المذهب الرّوحي.

مذهب الروحيين
وتعليل ظواهر الحياة

الفرق بين المادة الحيّة وغير الحيّة أي بين أبسط بسائط الأحياء وبين أدق ذرّات المادة الجامدة يتحصل بما نشرحه من معنى الحياة، ويمكن تلخيصه بمؤدى هذا العبارة وهي: إنّ الحياة مجموع الوظائف الّتي تقاوم الموت أو هي عمليّة التحليل والجمع الدائمة بلا انقطاع، أو هي النشاط الخاص للمادة الحيّة الموجب للحركة الذاتية والتغذية. وهذه الحياة تسكن كلّ خلية من خلايا أجسامنا. وهذه الخلايا إذا نضدت نضدا خاصا، واتصلت جدرانها على وضع خاص، وألّفنا منها مجموعنا الجسمي تكوّن من ذلك كائن حيّ ذو شعور خاص غير قابل للتجزئة مع بقاء هذا الشعور فمن أين جاء هذا الشعور. مع إنّ كل خلية إذا وضعت في أحوال مناسبة تكون متمتعة بصفة الحياة المذكورة.

وهذه الخلايا ليس لها رابطة حيوية سوى إنها تتغذى في مائدة واحدة وهي مجموع أجسامنا. ويدّر عليها غذاءها جهاز معوي واحد. ولا ريب أن هذا الانضمام والنضد ولّد هذا الشعور، وجعل هذه الأحياء الدقيقة غير قابلة للتجزئة من هذه الجهة، مع أنا لا نستطيع أن نقول إن ذلك

الانضمام ومجرّد الاشتراك في الغذاء كاف في تعليل ذلك الشعور غير القابل للتجزئة، فإنّ الأحياء المركبة غير البسيطة التي تجمع خلاياها وحدات حيوية لو نضدناها أي نضد شئناً، وألفناها أي كيفية من التأليف أردنا، وشاركنا بينهما في الغذاء الواحد والهواء بأدق الموازين الكيمياوية وغير ذلك من الأحوال المؤثرة فلا تتولّد من ذلك وحدات حيوية غير قابلة للتجزئة كالّذي كانت في الأجسام الحيّة.

إذن من أين جاء هذا الشعور؟ وما هو مصدره؟ إن الكلمات الّتي يعبرّ بها الرّوحيون عن مصدر ذلك الشعور من قولهم (روح) وقولهم سر إلآهي ووصفهم له بالفامض وبالمبدأ السامي وغير ذلك مما شحنت به الكتب الكلاميّة كلها أشربت معنى الاعتراف بالعجز عن أدراك كُنه ذلك السرّ الذي هو مصدر ذلك الشعور، ولكن مع هذا يتحتم علينا الاعتراف بوجوده والتصديق بثبوته، وليس هو حدّ ذاته فرضاً محالاً كفرض دائرة بلا مركز أو فرض مركزها خارج محيطها لا يصح التعليل به ولا محاولة إثباته.

ولو أننا انتقلنا لدرجة أبسط من الأولى إلى المادة والقوّة إلى تلك الكربونات الصغار وما تجمع فيها من القوى، وتسلسلنا في الأحياء إلى أبسط موادها قبل أن يظهر أو ل دور من أدوار الحياة فيها، وشاهدنا إن المواد العضويّة على تألفاتها الخاصّة ناشئة من مواد غير عضويّة، والوظائف العضويّة متسلسلة عن مبادئها وهي القوى المادية فتلك المواد الآلية وقواها مهما تفاعلت فلا يمكن أن يكون ذلك الشعور وليداً عنها،

وتلك الظواهر من منتجاتها وفرض الرّوحي ممكن ولا دليل على نفيه، ولا يصلح غيره للتعليل بل لا يصح التعليل بسواه.

فإذا أشرقت فإنّك حَيّ وإذا أظلمت فإنّك مَيتْ

وفي كتاب «السعادة والسلام»[1]: إن خلقنا لعجيب مريع، وليس لنا بعد من سبيل إلى أدراك كيفية تركيبنا الغريب، ومع أن بعضهم يقول بكلّ صراحة إنّ العقل البشري يلاحظ ويدرك كلّ ما يجري في الجسم فإننا بالعكس جاهلون تمام الجهل، وحتى أعلم العلماء والأطباء قليل ما يعلمون عما في أجسامنا، ومن المقرّر المسلّم به أنّه إذا تكلمنا أو قرأنا أو افتكرنا حدث في الدّماغ شيء ما ولكنا لا نستطيع معرفة ما يحدث.

ثم كيف نسمع ونبصر ونلمس ونشم؟ أشهر علماء التشريح يعجز عن اطلاعنا على حقيقة هذه الأمور، وقليلة وزهيدة هي معرفتنا عن أجسامنا. ولنأخذ تركيب أعضاء الحواس الخمس مثالاً: يوجد في الجلد عموماً وفي اليدين واللسان كريّات دقيقة صغيرة كلّ واحدة منها متصلة بعصب، وأعضاء لمس وغيرهما مما وظيفته نقل الإحساس بالحرارة والبرد نعرف هذا، إما كيفية انتقال التأثيرات الخارجيّة إلى الدّماغ وتحويلها فيه إلى شعور وإحساس فإننا لفي تمام الجهل عنها، وفي اللسان ألوف من الخلايا الدّقيقة المزعوم إنها أعضاء الذوق، ولكن كيف تتأثر تلك الخلايا بتأثيرات مختلفة بحسب اختلاف الطعم وتنوعاته؟ ثم كيف يحصل أدراك ذلك في الدّماغ؟ إننا عن حقيقة ذلك لفي جهل تام وإنّ في

(١) للأستاذ أفبري.

غشاء الأنف المخاطي بعض خلايا صفراء أو ضاربة إلى السمرة تختلف عن سواها بعض الاختلاف نعلم هذا، إما كيف إن هذه الخلايا تحمل إلى الدّماغ الروائح الكثيرة على اختلافها؟ وكيفية تلّقي الدّماغ لهذه الروائح وتمييزها بعضاً عن بعض؟ فلا علم لنا بذلك مطلقا.

تستقبل طبلة الأذن اهتزازات الهواء وتنقلها إلى مجمع أعصاب السمع بواسطة سلسلة عظيمات مقصود بها تقوية تلك الاهتزازات الهوائية، وقد ذهبوا إلى أن في الأذن أقواسا صغيرة نحو الأربعة آلاف وإلى إن هذه أشبه بمفاتيح الأرغن فتقع عليها التموّجات الصوتيّة كما تقع أنامل الموسيقار على آلته الموسيقية.

وقد يكون الأمر كما يزعمون ولكن أي تفسير للسر هذا، فالأذن آلة طرب إذن ولكن كيف لها تفسر تلك الاحساسات الخارجية أو أن تميّز بين الأنغام؟ ثم انظر إلى العين وتركيبها فهي مؤلّفة من أغشية منها القرنية والرّطوبة المائية والقزحيّة والجليدية والرّطوبة الزّجاجيّة والشبكية. وهذه مع إنها لا تزيد سمكا عن أرّق قطعة من الورق مركبة من لا أقل من تسع طبقات تعرف الداخلية منها بالعصبيّ والمخروطات الّتي لا تكاد تحصى. وقد قيل إنّ عدد المخروطات ثلاثة ملايين وعدد العصبيّ كذلك هذا هو التركيب الغريب في آلة النظر العجيبة ترتسم المرئيات على الشبكة كما تنطبع الصور على اللوح الفوتوغرافي فيبقى الرّسم واضحاً، ولا يبرح هذا اللّوح نظيفاً مستعداً لينطبع عليه رسم جديد نعلم هذا، ولكنّه دون الغاية فمن لنا بمعرفة ما يحدث بعد ما تنطبع الصورة على

الشبكة؟ وكيف تنتقل هذه التأثيرات إلى الدّماغ؟ ثم كيف يتم تمييز الألوان؟ وكيف تنتقل هذه التأثيرات الخارجيّة إلى الدّماغ؟ وكيف يحدث فهمها من قبله؟ هذا مالا نزال نجهله كلّ الجهل.

وهكذا يمكنني أن أحلل سائر التغييرات والتحويلات الّتي لا تزال آخذة في مجراها في تركيبنا العجيب كالإفراز وتكوّن الدّم ودورانه ومنافع سائر الأعضاء، ولكن ما الفائدة وكلّ وصف كما مرّ ينتهي بنا إلى ضرورة الاعتراف بجهلنا التام.

والخلاصة أن تركيب الجسم معّقد تعقيداً لا يصح باعتباره التعجب من اعتلاله ومرضه أحيانا بل الأولى بنا إن نعجب بصحته وسلامته والعلاقة الكائنة بين الجسم والنفس مبهمة غامضة.

أَتَحْسَبُ إنَّكَ جُرْمٌ صَغير وَفيكَ إنْطَوى العالَم الأكْبَر
وَأنتَ الكتابُ المُبينُ الذي بأحْرُفهِ يَظْهَرُ المُضْمِرُ

أصرّ الماديّون أن كلّ ما ننسبه إلى الرّوح من الأعمال إنما هو وظائف عضويّة، فكما أن المعدة والأمعاء وظيفتهما الهضم ووظيفة بعض الغدد إفراز اللّعاب كذلك القياس والمقارنة والتفكير والتعقل هي من وظائف المخ، وجميع هذه الأعمال المعنويّة الباهرة من هضم مجموع محتويات التجويف الدّماغي.

إرتباك الماديين

وهنا يقع الماديّون في أشد درجات الارتباك فليس الاعتراف بأمر لا يرى ولا يلمس ولا تنطبق عليه قوانين الفلسفة المادية تنبعث عنه تلك الأعمال الباهرة كما يقول الرّوحي بأعظم من الاقتناع بأن الاستنتاج العقلي والإدراك وغيرهما مما لا يشبه المنتجات الماديّة ولا يناسبها هي نتيجة وظيفة عضويّة ترتفع وتنحطّ على نسبة تركيبه الكيماوي كالإفراز والهضم.

وقد أيد الماديّون رأيهم هذا بشواهد من علم وظائف الأعضاء مثل إنّ الحيوانات الّتي ليس لها جهاز مخيّ أو يكون لها ذلك ولكنه بدرجة بسيطة غير كاملة كالأطفال، فأن الإدراك والتعقل في هؤلاء إما معدوم أو ملحق بالمعدوم ومثل إن الاختلال العقلي والغباوة نتيجة نقص في المخ أو تشوه فيه أو فساد في مادته، ومثل إن جوهر المخ يزيد وينمو بالريّاضة والعناء العقلي كما ينمو العضو الجسدي وتشتدّ عضلاته بالريّاضة والمجهودات الجسميّة.

أما الرّوحيون فلا يرون في ذلك الاستقراء شهادة، وإنّ الكمال المخيّ شرط لانبعاث تلك الأعمال الّتي لا تشبه منتجات المادة عن مصدرها وهو الرّوح وليس في جميع الأحوال العقليّة يصح لنا أن نجعلها أداء لوظيفة

عضويّة ومعلولاً لعلل مادية محضة كالحب والبغض والذاكرة والأميال الخاصة الّتي تستمرّ مع الشخص في جملة أدوار حياته التي لا يكون فيها نسيجه الدماغي بدرجة واحدة، والمجموع الدماغي مؤلف من ألياف مخيّة معقودة من مواد جامدة فاقدة للحس والإدراك ذات خواص معروفة لا يصح لنا التمحيص العلمي دعوى أن الشعور والتصوّر وسائر الأحوال العقليّة غير المحدودة من منتجاتها ووظائفها، ولا ضير إذا التزمنا أن لكل مدرك روحاً حتى الحيوانات ولكن الأرواح تتفاوت درجاتها في مراتب الكمال. وللرّاغب الأصفهاني في وجود الرّوح وفي إنها ليست من قبيل الأجسام كلمات وصفها بأنها تكشف دثار العماية وترفع سجف الغواية أتلوها عليك ملخّصة مصفاّة وهي بعد أن اعترف إن معرفة ماهية النفس وقسطها من الوجود أمر مستصعب غامض وإن من الأشياء البيّنة أن الجسم إذا قبل صورة لا يمكنه أن يقبل صورة غيرها ما لم يخلع الأولى ويفارقها مفارقة تامّة فلا يمكن لنا أن نربع المثلّث وهو باقٍ على تثليثه، ولا أن نثلث الدائرة وهي دائرة، وهذه حال لا تختلف فيها الأجسام ولا تتفاوت معها الأجرام. وهذه الخاصّة تقتضيها الطبيعة الجسميّة على الطلاق فكل جسم فهو ذو هذه المزية وما ليست له هذه المزيّة فليس بجسم، فلو وجدنا شيئاً يقبل صوراً متعدّدة في آناتٍ متعدّة ومهما كثرت تلك الصور زاد قوّة على قبولها، وهكذا تتراكم عليه الصور وتعتوره المتناقضات منها إلى غير النهاية، فإنا لا نرتاب في انّه ليس من قبيل الأجسام والنفس العاقلة مما يقبل صوراً متعدّدة معقولة مع حفظ كلّ صورة بحدودها محفوظة في حال وجود صورة أُخرى وتلك الصور

المعقولة مما يتصل بنا بالبداهة ولابّد إن لا يكون طابعها أجسامنا لما عرفته من خاصّة الأجسام ولابّد أن يكون شيئاً آخر وليس هو إلاّ النفس. هذه مضامين كلامه وقد ألتقطها منه وإنها من كلامه زهرة الرّوضة وذبالة المصباح.

وقد ذكر نحوها ابن مسكويه في كتاب التطهير والنظريّة الّتي ذكراها في خاصّة الأجسام وإنْ كانت صحيحة مقبولة في القياس المنطقي إلاّ أن ما ذكراه من قبول النفس للصور المعقولة وانطباعها فيها وتراكمها عليها إلى آخر ما ذكراه كله من قبيل الخطابة والشعر ولا تجدينا شيئاً مقارعة المجهول بما هو أدخل منه في المجهوليّة، وقد قرأت في كتاب «تهافت الفلاسفة» أدلّة عشرة على وجود النفس نقلها عن الفلاسفة كلها من هذا القبيل لا يصح لنا أن نستغل منها رأياً علمياً أو نستدرّ عنها نتيجة قطعيّة نرتاح أليها.

وقد ظفرت بكلمة لبعض الكتّاب أوردها هنا لدخلها في المقام قال بعد شرح آراء الماديين: «**أن مذهبهم خلاصته انّه ليس في العالم شيء سوى المادة والقوّة وليس العقل والنفس إلاّ أسماء لا مسمى لها**» وهو مؤيد بالأدلة الطبيعية الّتي لا سبيل إلى نقضها في نظرهم ولكن مهما قيل في صحة مقدّماتهم ونتائجهم فهم عاجزون عن تعليل أعمال العقل وإحساس النفس نعم أن أعمال التغذية والنمو والدثور والحركات العضليّة وبعض الأعمال العقليّة يمكن تعليلها بنواميس المادّة وحركة الدّقائق والجواهر.

ولكن هناك أعمال تقتصر مداركهم ومدارك البشر كافة عن تعليلها فالعلم قاصر حتى الآن عن تعليل الشعور بالحب والبغض والانتقام والانتصار ناهيك عن الوجدان الذّي لا ينطبق مطلقاً على نواميس المادّة والقوّة فإنّ كلاً منّا يشعر بأنه ذات مستقلة يشعر ويفتكر ويعلم انّه يفعل ذلك فإذا سلّمنا بأن الفكر نتيجة تفاعل القوّة والمادة فما قولك بالوجدان وهو شعور الإنسان بوجوده وبأنّه يفتكر فإننا نفتكر ونعلم أننا نفتكر في وقت واحد وهي خاصّة لا نعرف ناموساً من النواميس المادية ينطبق عليها فإذا قلنا إن الاشتغال بحلّ مسألة حسابيّة مثلاً حركة في دقائق الدّماغ فبماذا نعلل شعورنا بأننا نشتغل في ذلك الحل فبين الأعمال المادية والشعور النفساني أو العقلي بَون بعيد ولم يستطع العلماء أو الفلاسفة التوفيق بينهما أو تطبيق أحدهما على الآخر بوجه من الوجوه على إننا لو أعدنا النظر إلى حركة الدّقائق الّتي عليها مدار أدلّتهم وبراهينهم وبحثنا في كنهها لوقفنا حيارى ولو سألت المادّي من الذي جعل المادّة دقائق وبث فيها تلك القوّة؟ وكيف تتحوّل المادّة غير الحيّة إلى مادّة حيّة؟ أو ما هي العلاقة بين أعمال العقل والشعور وبين حركة الدّقائق؟ وكيف تتحوّل تلك إلى هذه؟ لما رأى سبيلاً إلى الجواب فَلْنُطَأطِئْ رؤوسَنا ونعترف بالعجز عن أدراك كنه الخليقة وسّر الأكوان ونكل علم ذلك إلى علاّم الْغيوب والسرائر.

ولا ينافي ما حررناه لك ما توصل إليه علماء الفلسفة العقليّة المبنيّة على معرفة الوظائف العضويّة الدماغية الّتي هي مصدر الظواهر العقليّة

ومَنْشؤُها وأساس تولّدها وتنوّعها وقد اعتمدوا أن كلمة عقل ذات معنى أجمالي قام في أذهان المتقدمين على أجماله وينحل ذلك المعنى الإجمالي بهذا العلم الحديث البيسكولوجيا الفيسيولوجيّة فقد عُرفت به حدود الدّماغ وعينت وظيفة كلّ نقطة منه وقد استطاع خريجو هذا العلم أن يرسموا خريطة دماغية تحدّد فيها مناطقه وتتعين منها وظائفه فليس العقل إلاّ وظائف يقوم بها ذلك الجسم النخاعي الواقع في تجويف الجمجمة ألمنقسم إلى جوهرين:

(أحدهما) رقيق سطحي سنجابي اللّون مائل إلى الحمرة وهو الجوهر العصبي الحويصلي وفيه مراكز الحس وقوى العقل.

(والثاني) وهو القسم الأكبر من الدّماغ لبيّ كثيف أبيض اللّون وفيه أعظم المراكز العصبيّة وتظهر على مجموع سطحه ارتفاعات معقدة منفصلة بفرجات مختلفة بالطول والعمق ومغلّفة من جوانبها ومن وجهها الظاهر بالجوهر السنجابي وتسمى بالتلافيف وهي موازين قوّة التعقل والإدراك في الإنسان ولها درجات في الوضوح والانفصال وهي أوضح ما يكون في ذوي العقول الرّاقية ويكاد ينعدم الانقسام في الحيوان وقوّة التعقل تتوّقف على ذلك لا على حجم الدّماغ ولك أن تنظرها في كتب التشريح الحديثة مصورة في غاية الوضوح رأي العين.

وقد عرفت مزايا الدّماغ بالضبط وعينت وظيفة كلّ نقطة وجزء منه بالمراقبة الطبيّة وأبحاث التشريح المرضي وعلم الأمراض العقليّة فلو أصيب شخص بالنسيان وفتشنا دماغه وجدنا أن نقطة منه معتلّة فإنّ

هذا وكله مما هو مبسوط في إسفار ذلك العلم لا يدفع الشك ولا يصلح للتعليل فأن تلك التلافيف الّتي عرفنا مراكزها ومناطقها ووظائفها لا تخرج عن كونها مؤلفة من دقائق ماديّة ولا نستطيع أن نفهم تلك المادة لذاتها يتهيأ لها أداء تلك الوظيفة المعنويّة العالية ولا يقدح في علاقتها بتلك الوظيفة أن تكون أداة وآلة لذلك المعنى الإلهي المحجوب سرّه وقد أوعدناك أن نذكر لك خلاصة وجيزة في علمي التنويم والاستحضار.

التنويم المغناطيسي

النوم المغناطيسي نوم صناعي عميق تظهر في حالته من النائم خوارق تثبت أن له روحاً متميزة عن جسده والاستحضار فن يتوصل به إلى استحضار الأرواح وإظهارها بشكل باهر ونكتفي بالمقام بالإشارة إلى فن التنويم والوقوف على تفاصيله لابدّ أن يستقي

من منابعه ولكن الذّي يستفاد من مجموع الرّوايات والمشاهدات الّتي رواها وشاهدها المهرة الفطاحل أن الإنسان ليس بمادة محضة بل أن فيه سرّاً روحانياً متميزاً عن مادته وإن أثر عمليّة التنويم جعل الجسد مؤقتاً بحيث لا يتحرك بانفعالات روحه وأعمالها فتتعطل حواسه ومشاعره ويبقى جوهره اللطيف متصرفاً طوع إشارة المنوم بحيث لو كان الإنسان محض المادة لما أمكن حصول هذه الأعمال وهذه الأعمال بشهادة أساتذة أطباء لا يمكن تعليلها بعلم وظائف الأعضاء.

وللتنويم درجات يتفاوت فيها تسلّط المنوم على النائم وقد يكون في أول درجات التنويم مالكاً لشيء من حريّته ثم إذا ترقى في نومه فهنالك الدهشة والحيرة من انفعال النائم ووقوعه تحت تصرّف المنوم كيفما يشاء ويكون جسمه فاقداً لكل إحساس وشعور وتسقط أجهزة حواسّه عن أداء وظائفها وهذا المظهر المدهش إنما يكون لغير المنوم.

(أما المنوم) فيستطيع أن يؤثر عليه بما يشاء وكأن الجسد بالنسبة إلى تلك القوّة المودعة فيه من قبيل الغلّ والقيد فهي مادام الجسد مالكاً لحريته مسخرة لمشيئته وملتذّة بلّذته ومتألمة بآلامه.

وكأنّ تلك القوى الإلهية بينها تحاب ولها مع بعضها مطاوعة فإذا تفككت حلقات القيد وانفصمت عرى الأغلال بواسطة عمليّة التنويم جاز للمنوّم إن يسخرها عن طريق هذا الجسد النائم ومن هذه النافذة الجثمانيّة واختبر حال عمليّة التنويم بنفس الطفل وروحه فإنها اقبل للتهيّج والانفعال وأطوع للتأثير من غيرها لأن قيودها بعد لم تستحكم حلقاتها.

وربّما تقوى درجة التنويم إلى حالة يقع فيها الجسد في شبه الموت فيفقد الحس والحركة وحينئذ لا يمكن مخاطبة روحه وتعوّد الصلة بين الرّوح والجسد ضعيفة إلى الغاية وانّه مع ذلك، كل تأثير يكون على الرّوح يسري إلى الجسم حتى التأثيرات غير المرئية إذا وقعت على الروح يكون مظهرها في الجسم فلو ضربنا بسوط ذلك الفضاء الذّي فيه الرّوح تظهر الحمرة في الجسم ويظهر من هذا أن علاقة الرّوح بالجسم لها درجات أقواها درجة الحياة ثم تضعف وتنتهي بالموت الحقيقي الذّي يكون به انفصالها تماماً ولا ادهش ولا اغرب من تلك التحوّلات والانتقالات في المؤثّرات فكما إن كلّ تأثير في الجسد في حال اليقظة والحياة يسري أثره إلى الرّوح فكذلك عند التنويم وأول درجات الموت كلّ تأثير يكون على الرّوح يسري أثره إلى الجسد وقد توصل جملة من العلماء إلى هذه

التجارب المحيرة للعقول حسبما رواه الثقاة.

ومن جملة تصرفات المنّوم الغريبة انّه يستطيع أن يمرّ بروح النائم في كلّ أدوار حياته السابقة من دورها الجنيني إلى دور الهرم ثم يردّها إلى دورها الذّي هو فيه هذا جملة ما وقفت عليه مأخوذاً من اصح مسانده وأتقن مصادره.

وربّما سمح لنا المستقبل بأكثر من هذا مادامت المسألة مطروحة على بساط البحث وهي موضع اهتمام العلماء وقد وافيتك بخلاصة الخلاصة ولبّ اللّباب.

وأني وإنْ كنت إلى الآن لم أشاهد علمية التنويم ولا درست هذا الفنّ على يد أستاذ واكثر من هذا فإنّ ما ألف في هذا الفن أكثره بلغات أوربية وأنا لا احسن منها شيئاً وربّما استعنت في درسي وبحثي بتلك المؤلّفات بواسطة المترجمين إلا أنّ شهادة أولئك

الرّجال الذّين اقتنعوا بصحة هذا الفنّ وما قرأته مما حرّر بلغات شرقية يقنع المطلع عليه أن الأمر ليس من قبيل الغش والتدليس هذا كله فيما يخص عمليّة التنويم.

استحضار الأرواح

وأما استحضار الأرواح بواسطة شخص وسيط فهو وإنْ كان قديم العهد جدّاً بين الأمم كما يفهم من قصة المرأة الّتي أحضرت روح صموئيل لشاول (راجع سفر صموئيل الأول ٢٨ :٧-٢٠) ولكن شاع أمره سنة ١٢٤٠هـ بين العلماء وتجدّد عهده وكثر اتباعه وكانت اتباعه موضع السخريّة والاستهزاء مبدأ الأمر وضحكه الملحدين المعاندين ولما تفاقم الأمر وانتشرت الدّعوة تجرّد لحل هذه الحادثة الغريبة جملة من رجال العلم المنصفين وواصلوا الفحص عنه فحصاً دقيقاً علميا برهة من الزّمان وقد تألفت على أثر ذلك جمعيّة كبرى سنة ١٢٥٠هـ ضمت بين رجالها أساتذة كانوا من أشدّ خصوم هذا المذهب وبات الناس من سائر أقطار الأرض مشرئبين لسماع حكمها الفصل وقد قدمت بعد المشاهدات والتجارب تقريراً ضافياً أروي لك أهم نقاطه وهي هذه الجملة.

إن الجمعيّة اقتصرت في تقريرها على المشاهدات الّتي رآها كلّ الأعضاء بطريقة محسوسة وكانت صحتها مقترنة بالبرهان القاطع أن أربعة أخماس الأعضاء ابتدءوا البحث وهم في اشدّ درجات الإنكار لهذه الحوادث معتقدين إنها ليست ألاّ نتيجة الغش والتعمية أو نتيجة حال عصبيّ اضطراري ولكن بعد أن وضعت لهم هذه الحوادث وضوحاً تامّاً في شروطٍ نفت كلّ الفروض وبعد تجارب دقيقة جدّاً تكرّرت مراراً لم ير

هؤلاء الأعضاء المنكرون بدّاً من اعتقاد أن هذه الحوادث حقيقية واقعية لا خيالية وهمية.

وأصحاب هذا المذهب يرون أن الأرواح تتحول إلى قوالب مصنوعة من مواد مرنة لطيفة شفافة عند الموت وهذا التحول عندهم هو الموت وإنّ جميع الأرواح ترفرف علينا بين أيدينا ومن عن يميننا وشمالنا وانّه يمكن إحضارها بواسطة شخص يكون في حالة خدرٍ عام وبتلك الحالة يأهل جسده لأن يتصل بتلك الرّوح الّتي يريد إحضارها وتكون علاقته بهذه الرّوح الجديدة أشدّ من علاقتها بروحه الأولى فهو جسد ذو روحين والرّوح المحضرة تستفيد من هذا الانفعال الجثماني والتشنج العصبي وتستخدم جهازه المنطقي للمخاطبة فينطلق لسانه بلغات لا يفهمها ويتلو على المخاطبين أموراً تتعلق بهم لم يكن يعلم شيئاً منها وقد تلقى عليهم دروساً وآراء في الفلسفة والرياضيات يجهلها الواسطة كلّ الجهل وقد تستخدم يده للكتابة وعيونه معصوبة وربّما تمتص من جسمه جسما سنجابياً نورانياً ليناً ينبعج بالضغط، ويقول بعضهم وفي الواقع لو وزنا جسم الواسطة رأيناه قد نقص كثيراً وقد شوهد إن الجزء الأسفل منه تلاشى بالمرّة ثم عاد لحالته الأولى بعد أن ذهبت الرّوح وقد شاهدت أنا بنفسي ضابطاً من ضبّاط الأتراك في النجف مقتنعاً بهذا الأمر أشدّ الاقتناع وقد كان منتسباً لجمعية غاب عن بالي عنوانها.

وقد روى لي جملة من الحوادث التي شاهدها هو بنفسه وأرباب هذا الاعتقاد يعتقدون أن الرّوح تطرأ عليها جملة من التحولات والترقيات

حتى تتصل بالملأ الأعلى وحينئذ لا يمكن استحضارها وكلّ تحوّل وصعود فهو عالم من عوالمها واختلاف العوالم إنما يكون بتلك التحوّلات لا بالزمان ولا المكان.

أول ما شاع هذا المذهب في أمريكا ثم مر منها إلى إنجلترا وفيهما جرى من الخصام والجدال بين الجاحدين والمصدقين شيء كثيرا ودونت فيه الأسفار الضخمة واهتمت به المجلات العلميّة ومن أقوال بعض المعترفين بصحته قوله: «وبما أني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الأدبي أن أرفض شهادتي بحجة أن كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وأني سأسرد ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكرّرة».

وقال العلاّمة الفسولوجي مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي: «لقد كنت دهرياً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع ولم يكن في ذهني أدنى محلّ للتصديق بحياة روحيّة ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها ولكني رأيت المدهشات الحسيّة لن تغالب فإنها قهرتني وأجبرتني على اعتبارها أشياء مثبته قبل أن اعتقد نسبتها إلى الأرواح بمدّة طويلة ثم أخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلي شيئاً فشيئا ولم يكن ذلك بطريقة نظريّة تصوريّة ولكن بتأثير المشاهدات الّتي كان يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بوسيلة أُخرى».

ولا يمكن لي أن استقصي لك ما قيل في هذا الباب وتضيق هذه الأوراق عن إحصاء الحوادث وأسماء الفنيين الذّين انقادوا للاعتقاد بها.

استحضار الأرواح عند الماديين

والماديون مع تعصبهم الشديد لآرائهم وحماسهم في الدّفاع عنها مما لا تجد عشره عند الإلهيين حتى التجأ بعضهم إلى التزوير والكذب في تأييدها فشوه بذلك سمعة العلماء وزعزع الثقة برواياتهم فهذا الأستاذ الشهير (كوفيه) الذّي مهد السبيل لدارون بوضع أساس علم (البالنتولوجية) صرّح بأن زميله (بوفون) كذب وأختلق ما نقله عن القرود الشبيهة بالإنسان رغبة منه في أن يدعم آراءه بتلك الأكاذيب لم يسعهم إلا الاعتراف بصحة تلك الرّوايات حتى اضطرّ بعضهم إن يرمي أشهر مشاهير فلاسفة العصر بالمرض العصباني المعروف بالمنمانيا لأنهم اعتقدوا استحضار الأرواح.

قال: «إن كان استحضار الأرواح[1] باطلا فلماذا صدّق به جمّ غفير من علماء أوربا وأميركا وانبرت لإثباته مائتا مجلة؟»، وقد أجاب عن ذلك بقوله: «كلما رأينا رجلاً من العلماء الذّين يعتقدون اعتقاداً أكيداً باستحضار الأرواح نرى شيئاً من الخلل والهوس في عقله فإنّه قد يكون أعلم الناس في أمور كثيرة يبني أحكامه فيها على القواعد العلمية ثم إذا

(١) وقد تعرض ميرزا معصوم في كتابه تذكرة طرائق الحقائق طبع إيران سنة ١٣١٦ ص١٥٧ج٢ لاستحضار الأرواح وروى مشاهدتين أحضر في أحدهما روح ملا جلال الرومي والثانية روح أفلاطون ولعلك تجد في المؤلفات الشرقية غير هذا أما أنا فلم أر من تعرض له غير هذا المؤلف وأغلب ما رأيته

حدّثته في مسألة استحضار الأرواح رأيته يصدق السخائف وينخدع بما لا ينخدع به أبسط الناس وتعليل ذلك إن مراكز القوى العقليّة كثيرة مختلفة فيتفق كثيراً أن ينمو منها بعض على نفقة البعض الآخر فتختلّ موازنتها كما يتفق أن تقوى القوّة الواحدة وتضعف الأخرى فيحتاج من هذه الجهة إلى طبيب والعلاّمة (ستيد) داخل هذه الزمرة».

ونختم البحث بما نقتطفه من خطبة بعض الأساتذة[1] قال تأتينا الحياة ولا نعلم من أين أتت وتفارقنا ولا نعلم إلى أين تذهب فهل يستنتج من ذلك أن وجود الشخص مقصور على المدّة القصيرة بين مجيء حياته وذهابها أو ليس الأولى أن يقال إن المدّة الّتي قضتها الحياة في هذه الفترة بين المجيء والذهاب إنما هي فصل قصير من فصول وجودها؟ لا نعرف شيئاً في العالم الطبيعي يوجد من لاشيء ثم يتلاشى وإنما نعلم أن الأشياء تجتمع ثم تتفرّق وإما كل شيء أساسي منها فغاية ما يقع له إن صورته تتغير وصفاته تتنوّع وقد يصير بحيث تتعذّر رؤيته أو الشعور به بالحواس كما يتبدّد الغيم ويتقطع الصوت فلا يبقى لها أثر ظاهر وفي هذه الأحوال لا يتلاشى الغيم ولا الصوت ولكنهما يتحولان إلى صور أخرى.

فما يقال في شخصية الإنسان أهي مجتمع وقتي أم هي شيء ثابت دائم؟ أيمكن أن تبقى كما هي أو تعود إذا ذهبّ حتى إذا زالت من أمامنا تبقى موجودة بصورة أخرى؟ وهل الصورة الأخرى الّتي تصير فيها

---

(١) اوليفرلدج.

يمكن إن يشعر بها أناس فيهم مشاعر قادرة على أدراك ما يدركه غيرهم وبعبارة أو ضح هل الجزء الأساسي الجوهري من كلّ إنسان يبقى في الوجود بعد الموت؟

هذه مسألة علميّة صريحة ويجب أن تكون من المسائل التي تحتمل الحل فإذا كان الإنسان يبقى موجوداً بعد الموت وجب أن يكون قادراً على إثبات وجوده بالوسائل الّتي كان يثبت وجوده بها وهو على الأرض نتحقق وجود جسده بالنظر واللّمس ونتحقق وجود عقله وشخصيته بكتابته والتحدّث معه وكلامه، فإذا بقيت روحه في حيزّ الوجود ووجد سبيلاً لاستخدام المادة الّتي عندنا حتى نسمع منه كلاماً أو نرى كتابة حق لنا أن نقول انّه استعمل هذه المادة ليثبت لنا وجوده وروحه والوسائل لذلك كثيرة حولنا وهي آلات عصبيّة دماغيّة عضليّة قويت في بعض الناس فمنهم من تصيبه الفيبوبة ومنهم من ينقطع جانب من دماغه عن العمل فيقوى على عمل آخر فالدّماغ الذّي استراح بالفيبوبة أو استراح بعضه بالانقطاع عن العمل قد يصير آلة طبيعية لتأثير الأرواح واثبات وجودها بالكلام والكتابة ولا فائدة في البحث في هل ذلك ممكن أو غير ممكن؟ وإنما الفائدة من النظر في الحوادث الواقعة فإذا ثبت منها أن الاتصال بالأرواح واقع فعلا فتسليمنا بوقوعه لا يكون من الغرائب المستحيلة فالمسألة مسألة اختبار وقد يظن أن ذلك غير محتمل ولكن أموراً كثيرة عدّت من المستحيلات في بادي الرأي ثم ثبت إمكانها وصحتها ونحن لا نعلم كيف يؤثر العقل في المادة ولا كيف تحرك أعضائنا الحركات الّتي

نريدها ولكن لا شبهة في أننا نحركها وقد ألفنا ذلك حتى لم نعد نستغربه.

والأستاذ المذكور من اكبر علماء الطبيعة في هذا العصر وله مباحث مبتكرة في النور والكهرباء والمغناطيسية وهو رئيس المجمع العلمي والمعروف أنه نادرة العلم في بلاده.

ويقول في موضع آخر من تلك الخطبة فإنا نعلم الآن إن الذّين غادروا هذه الحياة الدّنيا تاركين أجسامهم المادية لا يزال لهم ما يسمونه أجساما وفيها ذاكرتهم وصفاتهم وشخصيتهم محفوظة لا يعتورها خلل.

وقد عرفنا ذلك من اتّصالنا بهم بالكلام والكتابة كما كنا نفعل وهم على الأرض والواقع إنهم لم ينقطعوا عنّا ولاهم على بعد شاسع منا.

والشرقيون لم يهتم علماؤهم ذلك الاهتمام بعمليّة التنويم والاستحضار ولم يمحصوها بحثاً وتنفيذاً وكان اهتمام الغربيين بها أشدّ لأن شيوع المادية فيما بينهم كان أقوى.

وإنما التجأ إليها بعض العلماء الشرقيين واكتفوا فيها بتجارب غيرهم وشهاداتهم دحضاً لاشذاذ تكهربوا بالتيار الغربي ونزعوا نزعات إلحادّية تشبها وتقليداً وقليل من الشرقيين من زاول بنفسه تجربة التنويم والاستحضار.

والمادية في الشرق قلقة متزلزلة ليس لها ذلك التسلطن الغربي لأن الشرق مصدر الرّوحانيّات ومنبع علوم ما فوق المادة وما وراء الطبيعة

فكلما يوجد منها فيه فهو تشبّه ومحاكاة غير مبني على تجربة ولا امتحان والشرقي حاس بفطرته أن له روحاً غير جسده.

واغلب من تعرض لأمر الرّوح من علماء الشرق إنما تعرض لتفرّعات المسألة من حقيقتها وخلودها وكيفية اتّصالها بالجسم وغير ذلك من المباحث مثل أن أعمال الرّوح ما هي؟ وما هي أعمال الجسد؟.

أعمال الروح والجسد

وبعض هذه المباحث سدّت النصوص السماوية أبوابها ومن تعرض لهذه المباحث من علماء الغرب لم تكن عنده هي النقطة الجوهريّة في البحث بل باعتبار أن لها مساساً بغاية البحث وهي وجود الرّوح ولهم أعمال الرّوح والجسد وحقيقة الحياة آراء متضاربة.

فهل الحس والإدراك والتعقل من آثار الجسد أو من أعمال الرّوح أو الحس من آثار الجسم والإدراك والإرادة والتعقل من مزايا الرّوح أو ليست للحياة آثار إلا الهضم والإفراز وهي عبارة عن كون الجسم تامّا في أجهزته الحيوية وقد تعلقت به الرّوح والموت عبارة عن خلل يطرأ على تلك الأجهزة بحيث لا يكون له استعداد لان يقتني روحه والرّوح لبساطتها لا يتصور فيها انحلال فلا تموت.

(والخلاصة) أن ما عرفت من الشعور العام والاستنتاج المنطقي الفلسفي وفنيّ التنويم والاستحضار كافٍ لإذعان من يجحد وجود الرّوح ولا يعترف إلاّ بالمادة والقوّة ما لم يكن مكابراً وإما النصوص الدّينية فلا نحصيها لكثرتها وقد ذكرها القرآن الشريف في مواضع كثيرة وذكرها كتاب العهدين كذلك وصرحت بوجودها الأحاديث القدسيّة والأخبار المرويّة في جوامع الفريقين مضافاً إلى إنا لو فتشنا عن الأسلوب الأول

الذّي ابتدأت فيه الحياة الأولى بإطلاقها على الأرض وتعمقنا في درس الحيّ الأولى فلا يدنينا ذلك من معرفة أصل الحياة ولا يكشف لنا ذلك سراً عن أساس ماديّ يصلح لتعليل الحياة بغير المذهب الرّوحي.

وقد روى المقتطف مناظرة جرت في إحدى المجامع العلميّة كانت نتيجتها إن الأحوال الّتي ظهرت في أثنائها الأحياء الأولى يتعذر وجودها الآن وهذه النتيجة تشتمل على اعتراف ضمني مؤداه العجز عن إدراك سرّ الحياة بدرجة يجعلها عملاً كيماوياً كسائر الأعمال الكيماويّة الّتي نستطيع أن نبتدع مثلها.

ومن الغريب أن يرتاح خصوم مذهب مناجاة الأرواح للرّواية المأثورة عن ميرس وهو من اكبر الباحثين في مناجاة الأرواح فإنّه قد كتب ورقة ووضعها في ظرف وختمه ووعد في حياته بأن تأتي روحه بعد موته وتخبر بما فيها وادعى بعضهم بعد موته أن روحه ناجته بما فيها ففتح الظرف فظهر إن ما في الورقة لا يوافق ما اخبر به ذلك البعض فلعل الدّكتور لا يستطيع الوفاء بوعده وهو في شرك الموت أو أن ذلك البعض لم يتيسر له أن يستحضر روح الدّكتور وقد غولط من قِبَل روح أخرى ولِمَ لا تكون هذه الرّواية شاهدة على أن ذلك البعض غير بارع في أسرار هذا الفن؟.

ويسوءني أن يستحوذ العناد على بعض قرّاء الدّراسة الماديّة الذين أحتاشوا معارفهم على غير أسلوب مدرسيّ متسلسل وتحمّسوا لنظريّات ذكرها أربابها على سبيل الاحتمال والتخمين ومن قبيل أن الأمر ما لم تشك فيه فلا تكون على يقين منه واستخدموها غير مكترثين ولا مبالين

لزعزعة أركان فلسفة احتفظ بها العقل البشري قروناً متطاولة في أثرى الأدمغة معرفة وشعوراً فسمموّا أفكار الطبقة الوارثة لتلك النظريات المحكمة الرصينة وارتاحت ضمائرهم لتفكيك عرى أدب عال تمشى مع تلك الفلسفة قروناً متطاولة وقد انعكست حيرة بعض المتثبتين من علماء الغرب واستحالت شكوكهم في أذهان هؤلاء العصبة إلى جزم ويقين.

يقول شميل[1]: «إنَّ الإنسان بموادّه وقواه طبيعي وكلّ ما فيه مكتسب من الطبيعة وموجود فيها ثم يقول إذا كان العلم يرى أن المواد والقوى الموجودة في الطبيعة والمشتركة بين سائر كائناتها كافية وحدها لتفسير جميع تحوّلاتها وأفعالها البسيطة والمركبة الراقية فأي حاجة بنا بعد ذلك إلى القول بقوى غريبة لا يدّل عليها العلم وليس لنا اقل دليل علمي كذلك على وجود شيء غير منظور مادام كل شيء تقوم به مواليد الطبيعة موجودا في العالم المنظور ينشأ فيه ويعود إليه حتى ولا دليل فلسفي كذلك يستقي مصادره من العلم».

وهو شيخ هذه العصبة في الأيّام الأخيرة وأبو جماعتهم يقول ذلك مؤمناً بهذه العقيدة المادية البحتة الّتي نشأت عن قلة الإدراك وضعف الشعور والإحساس مقتنعاً بهذا الفرض الذّي لا يقوم عليه إذا أردنا بالطبيعة ما هو المنظور فإنّ كل هذا المنظور لا يكفي في ما نعلم حتى الآن لتعليل جميع الظواهر الطبيعية وكم من الظواهر الطبيعية ما يبقى سرّه مكتوماً أبد الآبدين وقد يضطر المادي نفسه لفرض مجهول كفرض الأثير لتموجات النور.

---

(١) شبلي شميل.

الإلهيون والماديّون
وآراؤهم فيما وراء الطبيعة

لا ريب أن الرّوح التي نحن بصدد إثباتها من جملة غير المنظور وما وراء الطبيعة، وقد جحده الماديّون بجملته وأنكروا مالا سبيل لحواسهم إليه بكليته وليست الرّوح بخصوصها ذات شأن خاص في التفكير والاستنتاج المادي عندهم بل لأنها داخلة في ذلك الضمن ومشمولة لمؤدّى الحكم، فالقائلون بإثبات الرّوح مازالوا بين خصمين أولئك الذّين يجحدون ما وراء الطبيعة بجملته وآخرين لا يجحدون ذلك كله ويعترفون بالصانع جلّ شأنه إلاّ انهم لا أدريون أو منكرون لوجود الرّوح فإذا تقارعت الحجج مع الفريق الأول فلابد أن ينصرف البحث إلى أهم نقاطه وإلى الدّعامة الأساسية فيه وهي وجود الصانع جلّ شأنه.

ونحن قد دللّنا على وجود الرّوح بخصوصها واستلزم هذا الإيجاب ضمناً وهن ذلك السلب المطلق ولسنا الآن بصدد دحض دعاوى الماديّين أو كشف شبهات اللا أدريين من حيث الجملة فهذا نرجئه لمورد آخر في فرصة أُخرى إلاّ أنّي أريد أن أنبهك على سرّ الغموض في مسألة وجود الخالق جلّ جلاله وأوقفك على الأصل المستلزم لاختلاف الآراء فيها من

دون نشر حجة على الإثبات أو إقامة شاهد على النفي فهذا ما قد اعتمدنا بيانه في موضع آخر إنما الذّي يهمنا هنا بيان سرّ الغموض في المسألة ومصدر تباين الأفكار فيها فإنّ المرء إذا وقف وقفة المتفرّج على الخصام وأشرف إشراف المراقب لذلك النزاع وجد في كل واحد من الفريق المخاصم الأساتذة المبرزين والعقلاء المفكرين أساتذة العالم وعقلاءه وإنْ كان بين الفريقين لدى المنصف بَون شاسع وفرق واضح وما وجد في العالم منذ الخليقة عالم أو مفكر إلا وقد عالج هذه المسألة وأحتفظ بنتيجة منها وآراء الفلاسفة من الإلهين والماديين فيها متناقضة متضاربة فإذا نظرنا إلى أولئك الماديّين وجدنا من بينهم جملة ممن لا ينكر اقتدارهم العلمي وبلوغهم الدّرجة العالية في قسم من المعارف والفلسفة، قد ادّعوا البداهة على النفي وإذا ألفتنا النظر إلى الفلاسفة الإلهين وجدنا فيهم أمراء الفلسفة الماديّة والعقليّة ومؤسسي غالب العلوم العالية وهم صفقة واحدة يدعون البداهة على الوجود ولا يستنكف الفريق الثالث من الاعتراف بالعجز والتصريح بالشك والارتياب فما سرّ الغموض الذّي أتعب الأفكار وخاصم بين تلك الآراء ولابدّ من بيان مدخل لكشف ذلك السر.

وقد ذكر له العلماء وجوها تجدها في مؤلفاتهم وإنما أتيناك بما لم نعثر عليه في كتب القوم[1].

(١) راجع كتاب الأنوار النعمانية للسيد نعمة الله الجزائري طبع إيران سنة ١٣١٩هـ.

تنقسم الأعمال العقليّة إلى قسمين:

الأعمال الانفعاليّة: وهي التي يأتيها العقل منفعلاً من تأثير الصور التي تتصل به من الخارج كالشعور والتصور.

الأعمال الفاعلية: وهي ما يحدثه العقل إحداثاً ويكون هو البادي به كالاستنتاج والاستنباط والتدبير.

فاتصال المؤثرات الخارجية إلى الدماغ بواسطة الحواس وحصول صور تلك الأشياء في الذّهن واختزان تلك الصور وتفهم القضايا التي تعرض على العقل كلها أعمال انفعالية ولكلّ واحد من هذه الأعمال له نخاعة وتلفيف خاّص به من مجموع الجسم الدّماغي فالذاكرة مثلاً إنما تحصل بعد ما تصل التأثيرات الخارجية بواسطة الاهتزازات العصبية إلى الدّماغ وتأخذ صورها وترتسم في حويصلاته ويكون الرسم جليّاً أو مشوشاً سريع الزوال أو بطيء المكث على نسبة بناء الحويصلات الخاص واستعدادها الفيسولوجي فهي من قبيل الصحيفة الفوتوغرافية ويليها الأعمال الفاعليّة التي يباشرها العقل ويبتدأ بأحداثها واختراعها وهي أهمّ مناقب الإنسان العاقل وعليها يتوّقف رقّي المجتمع الإنساني وسعادته كاستنباط الآراء وإبداع الأساليب والتمييز بين الآراء الصحيحة والفاسدة ومقارنة الأفكار والصور المخزونة والأحكام ويدخل في ذلك جميع أعمال التدبير والتفكير وليست هذه الأعمال انفعاليّة أو فاعليّة مستقلة متميزة أي انّه لا يكون لأحدها تأثير على الآخر تقوم به نقطة خاصّة كعمل منعزل عما عداه وكمال العقل إنما يكون بتمام الموازنة بينها

وحفظ نسب خاصّة في بناء التلافيف الدّماغية وإذا وهن بعضها وضعف بنائه وعجز عن أداء الوظيفة كما يلزم أثر وهنه في المجموع فإنا إذا حسبنا ووازنّا تجد الأعمال العقلية متداخلة متراصّة مشتبك بعضها في قوام الآخر.

تاجَرَتْ فيكَ العُقولُ فَما رَبحْت ألاّ أذى السَّفَرِ

أمّا مسألة وجود الخالق عزّ شأنه فلابدّ في حلها من عمل عقليّ مركب من فاعليّ وانفعاليّ وبمقدار ما يكون العمل العقليّ الفاعليّ فيها سهلاً بسيطاً مؤاتياً بغير عناء يكون العمل الانفعالي صعباً غامضاً عسراً فإنّ تصور الخالق والوقوف على كنه هويته ممّا تعجز العقول المتعارفة غير الخارقة عن إدراكه ولا يمكن للمنتهي المحدود أن يحيط بما لانهاية له ولا حد.

وربمّا يكون قصور عقولنا عن ذلك لقصور في الخلقة وربما يكون ذلك النقصان في الخلقة لحكمة فائقة فمن شعر بالخالق وأحسّ بصورته وكنه حقيقته صعق هيبة وجلالا وجمد عن اختياره وغلّ في قراره وليس كذلك العمل العقليّ الفاعليّ فإنّه في غاية الجلاء وكمال الوضوح.

ويكفينا قوله أسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا يدلان على اللّطيف الخبير وإذا كان الحال في هذه المسألة هكذا فأما من جهة العمل الانفعالي فإنّ جهازه في الدّماغ عاجز وعاجز أن يمسك بها أو يحيط بمعناها مهما كانت مصادر العمل الفاعلي فيها جلية ظاهرة مواتية لأوائل درجات القوى العقليّة فمن نظر أليها من هذه الجهة وقع في شرك الإنكار وارتطم في هاوية الإلحاد.

وقد نهانا الشارع المقدّس عن التفكر في ذاته لطفاً بعباده وعناية بهم فعن أبي جعفر (ع): «إيّاكم والتفكر في اللّه ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه».

وعنه (ع): «تكلموا في خلق اللّه ولا تتكلموا في اللّه فإنّ الكلام في اللّه لا يزداد صاحبه إلاّ تحيراً».

وقد لزمه وهو جاحد ملحد أن يتخذ له مخرجاً من قوّة تلك البراهين المحكمة الصريحة الدّالة على وجوده تعالى شأنه وأن يفزع إلى النواميس المادية معللا بها جملة الحوادث الكونية وقد وقع فيما هو أشدّ من ذلك إبهاما وغموضا وأن يختلق النظريّات التي كلها فروض في فروض وآخر نظريّة جمدت عندها القرائح وكلّت دونها الأفهام واعتبرت وحياً ماديّاً مقدّساً هي نظريّة داروين فقد أصبحت في القرون الأخيرة رشد الماديّين وهدايتهم والكلام في فسادها وصحتها وموافقتها لمذهب الإلهيين ليس هذا مجاله.

وقد كان الشيخ داروين مبتدع هذه النظريّة شيخاً من شيوخ الإلهيين وواحداً من كبّار الربّانيين.

ولا يؤاخذ الإلحاديون بمثل ما يؤاخذون به مما نذكره من أن أغلب الموجودات التي نحكم بوجودها عن طريق المشاهدة والحسّ لا نعلم من حقائقها شيئاً وكثيراً من القوى الطبيعية مع أنّه لا سبيل إلى إدراك كنهها نحن على يقين من وجودها بمشاهدة آثارها ولا يصح لذي مسكة أن يفرض ملازمة بين الحكم بالوجود وإدراك الكنه.

والطبيعي الجاحد لوجود الخالق يعترف ويقرّر وحدة الوجود ووحدة الطبيعة التي أوجدته والطبيعة على ما يعرّفها هو به هي القوّة المجهولة غير المتناهية التي وجدت بذاتها وأوجدت الوجود وكلّ ما فيه وفقاً للنواميس التي خصصّتها لذلك وهي الضابطة للعالم ومن يتمعن هذا التعريف ويقارنه بما تتصف به الذّات الإلهية يجد أنَّ الطبيعة في عرف ذلك الملحد ما هي إلا الخالق موجد الوجود لو اكمل تعريفه بصفاته الثبوتية والسلبية ومن يعترف بكونه موجداً ويعترف بوجود موجده في ضمن مكوناته يكون مؤمناً باللّه سوى أنّه أعطاه اسماً آخر للدّلالة عليه ولكنه إيمان ناقص وعلى صورةٍ أدنى للإنكار منها للإثبات وما العبرة إلا بقوّة الإيمان لا بضعفه وبالصراحة لا بالإضمار.

حاضرت يوماً واحداً من أساتذتي العرفاء فقال لي أتدري لماذا لا تدركه العقول ولا تتصوّره المشاعر؟ أضرب لك مثلاً إنّ أجسام المرئيّات وأشباح المبصرات إذا ألصقت بالنواظر ولامست المحاجر فإنها لا تراها جرّب ذلك.

وهو جلت آلاؤُهُ مع كل شيء لا بمقارنة وغير كلّ شيء لا بمزايلة انعقدت بجلاله المشاعر وتقومت بآلائه المدارك فهو أقرب إلينا من حبل الوريد فلقربه لا ندركه ولدنوه لا نتصوره والشيء قد يخفى لفرط ظهوره.

أمّا الإلهيون فلم يفكروا في حلّ هذه المسألة من هذه الجهة واستطرقوا إليه في الحكم بالبداهة عن طريق شواهد الوجود الواضحة وآياته البينة وبراهينه المحكمة وأسفر لهم الحق واعتصموا بالعروة الوثقى، ﴿أفي اللّهِ

شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ واتّضح بما قدمّناه إنّ العقل بمقدار ما يجد من العناء في عمله الانفعالي في هذه المسألة يتيسر له بكل سهولة العمل الفاعلي فيها وهذا سرّ الغموض ومنشأ الشبهة وَشرك الحَيْرة ومن هذين الدافعين نشأ مذهب اللاأدريين إنْ حسبناه مذهباً.

مباحث المعاد

واعلم أن المعاد في الجملة مما اتّفقت عليه جميع الديّانات بجميع تفرّعاتها عدا طائفة[1] من اليهود تعرف بالصدوقيين، وكذلك ألزمت بالاعتقاد به الديّانة الإسلامية أصلاً من أصولها وركناً من أهمّ أركانها والسور التّي أوحى الله بها لنبيه(ص) قبل الهجرة كذوات

(آلر وحم وطس وسورتي الأنعام والأعراف) وغيرها أطنبت في تقريره كعقيدة التوحيد ونفي الشرك، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ فتثنّ الإيمان به بعد الإيمان بالله تعالى، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا﴾ وفي سورة البقرة التّي هي سنام القرآن ومجمع معالم الدّين ما ليس عليه من مزيد ومسائل ما بعد الموت وفي جملتها المعاد سمّاها أهل المذاهب الأربعة بالسمعيات، وقالت

---

(١) جاء في قاموس الكتاب المقدس أنهم طائفة من اليهود كثر ذكرها في العهد الجديد أما اشتقاق هذا الاسم ومعناه فمتوغلان في الإبهام غير أن الرأي الأقوى هو إن الصدوقيين تسلسلوا من صادوق وإنهم سلالة كهنوتية شريفة (١ع ٥:١٧) أما صادوق المذكور فكان رئيس كهنة شهير عينه سليمان عوضا عن أبياثار بعد عزله وكان له ميل شديد إلى الفلسفة (١مل ٢:٣٥) وكان الصدوقيون طائفة صغيرة سطوتهم قليلة بين الشعب وكانوا ذوي تجارة وعلى الغالب أغنياء وكانت أفكارهم دنيوية وكانوا اعتبارهم للديانة اعتباراً سطحياً ولم يمتد لاهوتهم كثيراً بين العوام لنوصه في الآراء الفلسفية واشتمل على أربعة آراء رئيسية ثالثها إنكار قيامة الأموات أي اعتقدوا إن النفس تموت مع الجسد (مت ٢٢:٢٣) وإذ رفضوا تعليم القيامة سقط عندهم تعليم الثواب والعقاب والاعتقاد بالملائكة والأرواح وقد اختفت هذه الطائفة من صفحات التاريخ في القرن الثاني المسيحي.

طوائف من المعتزلة وغيرهم وجملة من الفلاسفة الإلهيين والمتكلمين إنّه يمكن إثبات معاد النفوس بالعقل أما معاد الأبدان فلا سبيل إليه إلاّ السمع وضلّت طوائف من الناس فأنكرت المعاد الجسماني.

أما المسلمون والنصارى واليهود فجلّهم مؤمنون بما جاءَتْ به رسلهم في أمر المعاد على مؤدى ظواهر الأخبار بلا كناية ولا تأويل وفيهم طائفة واقفة متحيّرة، وفيهم من اعتقد إنَّ ما جاءت به الرّسل أمثال مضروبة لتفهم المعاد الرّوحاني، واعتذروا للرّسل بأنهم خيّلوا الحقائق بأمثلة خيالية وإنّه لا يمكن خطاب الجمهور إلاّ بهذا النحو من البيان.

وقد تاهت الأفكار في هذا الباب، وللفارابي[1] نفسه أقوال ثلاثة متضاربة ثالثها التفرقة بين النفس العالمة والجاهلة وإن الأولى تعود والثانية لا تعود، ونحن نعلم بالضرورة إن نبينا (ص) اخبر بمعاد الأبدان وإنّه على حدّ سائر ضروريّات الدّين الإسلامي، وللباطنية زعم غريب وهو إنّ الاعتقاديّات والعمليّات في الإسلام رموز وإشارات، وإنّ الصلاة مثلاً رمز لمعرفة أسرارنا والصوم رمز لكتمانها والحج لزيارة شيوخِنا المقدّسين والأقوال والآراء كثيرة لا يهمنا نقلها. وللشيخ أبي حامد كلمات

---

(١) قال ابن الطفيل في رسالة الحي بن يقظان وأما ما وصل إلينا من كتب أبي نصر فأكثرها في المنطق وما ورد منها في الفلسفة فهي كثيرة الشكوك فقد أثبت في كتاب «الملة الفاضلة» بقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لا نهاية لها بقاء لا نهاية له ثم صرح في «السياسة المدنية» بأنها منحلة وصائرة إلى العدم وإنه لا بقاء إلا للنفوس الكاملة ثم وصف في كتاب «الأخلاق» شيئاً من السعادة الإنسانية وأنها إنما تكون في هذه الحياة التي في هذه الدار ثم قال عقب ذلك كلاما هذا معناه، وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات عجائز فهذا قد أيأس الخلق جميعاً من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة إذ جعل مصير الكل إلى العدم وهذه زلة لا تقال وعثرة ليس بعدها جبر هذا مع ما صرح به من سوء معتقده في النبوة وإنها بزعمه للقوة الخيالية خاصة وتفصيلة الفلسفة عليها إلى أشياء ليس بنا حاجة لإيرادها.

متهافتة وآراء متدابرة وظني إنّ أبا حامد لا توضح كتبه آراءه ونعم ما قاله فيه ابن الطفيل قال: «وأما كتب الشيخ أبي حامد فهي بحسب مخاطبته للجمهور يربط في محل ويحلّ في آخر ويكفر بأشياء ثم ينتحلها، ثم إنّه من جملة ما كفّر به الفلاسفة في كتاب «التهافت» إنكارهم لحشر الأجساد وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصّة»، ثم قال في أوّل كتاب «الميزان»: «إنّ هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع» ثم قال في كتاب «المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال»: «إنّ اعتقاده هو كاعتقاد الصوفيّة وإنّ أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث»، وفي كتبه من هذا النوع كثيرة يراها من تصفحها وأمعن النظر فيها، وقد اعتذر عن هذا الفعل في آخر كتاب «ميزان العمل» فقد قال بعد تقسيم الآراء إلى ثلاثة: «ولو لم يكن في هذه الألفاظ إلاّ ما يشكك في اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعاً فإنّ من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة».

وإنّي لا اذكر هنا الأدلّة التي ذكرت وما لحقها من المناقشات والمباحث فهي أكثر من الكثير، ولكني أريد أنّ أملي لك مالا تراه في أكثر تلك المطولات من أدلّة لا ينالها الرّد ولا يخدشها النقد.

وفي كتاب «المقابسات» لأبي حيان التوحيدي فصول رائقة وجمل علمية وخيالية فيما يخصّ المعاد جذابّة فلتراجع. والمسألة من أهم المسائل وأشكلها وهي تتعلق بنا رأساً، فهل لوجودنا هذا في الخليقة عالم آخر غير الذّي نحن فيه؟ وهل بينه وبين عالمنا هذا علاقة واتّصال أو الأبدية فناء

محض وعدم بحت؟ والأديان وإن حلّت هذه المشكلة وقالت بالمعاد والخلود، ولكنها أنبأت بذلك بصيغة الخبر وأسلوب الحكاية وكقضية مسلّمة فلا مجال للبحث فيه من هذه الجهة، ولا ريب في صحة هذا القول بالنظر إلى النصوص الدينّية ولكنا نريد أن ننظر فيه من حيث العلم ونسلمه للبرهان، وننظر هل يدلّ البرهان على وجود عالم آخر فيه خلود وتأبد أم إنّا إذا متنا فنحن صائرون إلى العدم ومنقادون إلى الفناء ؟!.

من البديهي إنّ أبحاث المعاد من أقدم ما بحث عنه الإنسان العاقل كلما ارتقت مدارك أمّة فكرت في مصير أمرها بعد الموت، والأكثرون على أن في الوجود عالماً آخر نسير إليه عن طريق الموت أما إلى نعيمه أو جحيمه، وقد استندت أحكام المتقدّمين إلى العلم المعروف عندهم وكتب الأقدمين مشحونة إلى حواشيها بأدلّة ركّبت على فلسفتهم وعلومهم مما لا نفهمه ولا نعبأ به وهو معدود في نظر القرون الأخيرة كجزء من تاريخهم وليس له قيمة علمية، فقد كسدت سوق تلك البراهين الجدليّة التّي كان المعول فيها على الألفاظ والمصطلحات.

والمسألة إذا لم نستطيع أن نعالجها عن طريق الحس ونحلّها بالمشاهدة والتجارب تبقى كما هي غامضة وغامضة، ولابدّ من أن نتوّصل إلى الحقيقة بالاستنتاج العقلي ويكون النص الدّيني لنا زيت السراج ولولب الجهاز.

دلالة الوجدان على المعاد

لا يمكننا أن نتصوّر أنّ هذا الوجود صائر إلى العدم والوجدان يدلّ على أنّ الخلود والمعاد بهما يكون كمال النظام وحكمة الإبداع، فما جئنا لهذا العالم لنقضي أيّاماً معدودة ثم نتلاشى، إنّ وجوداً كهذا يكون عبثاً وتكون الخليقة برمّتها ألعوبة لا معنى لها ولا فائدة، والدوام والاستمرار أصل وجداني مستحكم في غرائز العقلاء في منشآتهم وأعمالهم، ومن السخافة أن يهتمّ من له أوائل الوجدان بأمر مؤقت مستدرج، والتوقيت والزوال أمران نسبيان وليست المُنْشآت والمكوّنات في رقعة هذه البسيطة صوراً كهربائية وأشباحاً سينمائية ابتدعها خالقها بما فيها من وئام وخصام ولهوا وبطراً.

البرهان على المعاد

الفناء والزوال في الصور والتآلفات

جعل الله تعالى أساس الموجودات بأسرها في هذا العالم المحدث المادة والقوّة، ولا يمكننا أن نزيد فيه ذرّة أو ننقص منه ذرّة، وتلك المادة والقوّة اللّتان أخرجهما باره‌هما من أحشاء العدم منذ الخليقة كانا ولم يزالا إلى الآن لا تعتريهما زيادة ولا نقصان، والجماد والنبات والحيوان صور وتقلبات وتحوّلات ذوات نسب متفاوتة ومقادير موزونة تتجاذبها قوى ونواميس متقنة فيتمخض العالم في كل دور من أدواره وينفرج عن مشهد من مشاهد الكائنات وينجلي في عالم الشهود سجلّ من سجلاّت الخليقة ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أما المادة والقوّة فهما كما هما منذ كانتا، والفناء والزوال جإلى أن يأتي أمر ربّك ذي الجلالج في المظاهر والتألفات.

أما صور البسائط وهياكل الأجزاء الفردة، فقد أمسكت بها موادّها منذ الإبداع والتكوين، ومن أين يستحيل في العقل أن تبقى بعض صور المؤلفات المادية والمركبات العنصريّة ملازمة لها لا تنفك حتى لو انعدمت وعادت كصور بسائطها التي لا يمكننا الاعتراف بانفصالها عن موادها ومفارقتها؟ ومن المحال أن نحكم على الممكن الواقع بالمحال، وإذا كان

هذا الأمر ممكناً غير محال وكانت ملازمة الصورة للمادّة بوضعها البسيط واقعاً لا يقبل الإنكار، ففي المركب منها إذا كان على وضع ونسبه خاصّة بمقادير كيماوية دقيقة جائز لا يوجد في العقل ما ينفيه.

أما إثبات ذلك فسوف نبرهن عليه بما لا يستطاع ردّه ونقده وبه يتضح لك إنّ هذا السر الخفي ظفرت به الأديان قبل العقول ولا يحق لنا إنكار ما يغمض علينا وجحده إنكاراً قطعياً، ولعل علة الغموض قلّة المعرفة وضعف الإدراك.

إتقان النواميس المادية

إنّ هذا العالم المشاهد المحسوس إذا نظرنا في جهتيه المادية والأدبية ودقّقنا نظام الموجودات بأسرها واستدعينا علماء النفس والفلسفة والطبيعة، لا نجده كاملاً معقولاً في جهاته الأدبية إلاّ إذا فرضنا له عالماً آخر يتجدّد فيه هذا العالم من ألفه إلى يائه ومن مبدأه إلى منتهاه، ويكون ذلك العالم الآخر متمماً له ومصلحاً لمواطن الخلل فيه.

كما إنّا إذا تدبّرنا الحوادث الكونيّة المادية والمقدّرات الطبيعية وجدنا أنفسنا في ضمن جهاز مدهش في أحكام الصنع والإتقان يتحرّك طبق قواعد ثابتة وحدود معينة، فالفلكي يستطيع أن ينبأنا عن حركات السيارات في أفلاكها الجارية فيها بأزمنة ومسافات مضبوطة وبنظام تام وعن تعيين المكان الذّي تبلغه بعد مئات من السنين أو ملايين، ويعرف بالدّقيقة والثانية، ساعات الكسوف والخسوف ومشارق الأهلة في آفاقها وفي أرضنا نرى الفصول تتوالى بأوقاتها على نظام معلوم.

وكل حادثة من حوادث الكون ومقدّرة من مقدّرات الطبيعة، نجد لها تعليلاً علمياً ترتاح إليه العقول وتستنير به الأذهان، فإنّ درجات الحرارة والبرودة في البحار والأجواء ونواميس الجاذبية جاءت بغاية ما يمكن من الإتقان بإنشاء من بارئها تعالى، ضباب فسحاب ففيث مدرار اهتزت له

الأرض وربت واكتست حدائق وجنات غناء، وهكذا التفاعلات الكيماوية، فإنّ نواميس تركيبها وتحليلها من أدق النواميس وأضبطها وشاهد النظام في ذلك إن الكيماوي إذا عمد إلى عملية كيماوية تنبأ عن نتائجها قبل وقوعها، وإنّه ليستطيع التعليل لأنواع هذه الحوادث بما لا يبقى معه إبهام ولا التباس. ولولا هذا النظام المتقن فإنّ الطبيعة قد تمشت على فوضى كيماوية، لما صح شيء من ذلك ولا يفوتك أن تعتبر بظواهر الحياة.

إنّ فلاح القمح إذا بذر القمح يعلم علما يقينيا أنّه لا يحصد إلا قمحاً، ونحن نعلم يقينا إنّ الحيوان لا يولد من نبات ولا يكون النبات أبا للحيوان، وإنّ لأنواعها أعماراً لا تتعداها وللمظاهر الحيوية نواميس جارية بغاية الدقة والإتقان والوضوح والجلاء ومن مبدأ تكوّن الجنين إلى منتهى غايات الشيخوخة درجات لا يمكن الطفرة فيها، وهذا النظام مستوعب لجملة الكائنات وكل ما هو في العالم المادي فهو نتيجة من جهة وسبب من جهة أُخرى، وسلاسل النتائج والأسباب الطبيعية لابد من التسليم بها والإذعان، والفوضى والصدفة في الحوادث الكونية، اسم بلا مسمى إنما هما وضيعة الجهل ومصطلح الغباوة، فإذا سقط جدار على إنسان فقتله، فهذه الحادثة إذا دققنا في النواميس والفواعل التي تقدمتها يمكن أن نتنبأ بها ونخبر عنها قبل وقوعها بألف سنة فلم ينقض ذلك الجدار إلا بمفعول الرياح والرطوبة والحرارة والجاذبية، فإنّ الريح لم تمرّ به إلا مدفوعة بعوامل طبيعية معلومة مقرّرة اقتضتها نواميس

الرياح المعروفة، والرجل لم يوجد بجانب ذلك الجدار إلا لأسباب طبيعية راهنة لامناص عنها ولو فوجئ أحدنا بالموت بغتة يتبادر إلى أذهاننا أنّ موته كان صدفة ولو فتشنا الجثة لوجدنا عضواً من أعضائه الرئيسية تمكن فيه مرض مبني على أصول وقواعد طبية متقنة متسلسلة عن أسباب تقدمتها، والأمثلة يضيق بها المقام، فسبحان من أتقن صنع الفلك الدوّار بمقادير تبرّجه.

استئثاره تعالى بعلم الغيب

ومن ذلك البيان تعلم أنّ غيب السماوات والأرض قد استأثر به مبدع تلك النواميس ومكوّنها، وإنّ خالق الأسباب وبارئها هو الذي يعلم مسبباتها ونتائجها وتلك المظاهر والمفاعيل حاضرة عنده وماثلة لديه بتفاصيلها منذ الإبداع والتكوين ولا تستطيع قوة بشرية أن تحيط بجوامع أسرار الخليقة وجملة قوانينها ما لم تتصل بالملكوت الأعلى وبذلك المبدأ الفياض.

فذلكة ما تقدم

وفذلكة ما تقدم إنّ كل حادثة كونية أساسها المادة والقوّة على اختلاف أنواعهما وتعدد مظاهرهما، لها نواميس وقواعد وتعاليل يرتاح لها العقل ويندهش من صحة مقدماتها ونتائجها، فلا فوضى ولا صدفة في الطبيعة بأسرها، وهكذا يكون النظام مرعيا في جملة الحوادث والأعمال التي ترتبط بالمادة والقوة بجميع أنواعهما إذا استقريناها حادثة، فإذا تجاوزنا قعقعة المادة وألفتنا النظر إلى الأعمال والوقائع من جهاتها الأدبية أو المعنوية ومن حيث الحكمة والسداد فتلك الوقائع من جهتها المادية لابد من أن تقع كما وقعت طبقا لأسبابها ما لم يلوها معجز إلهي (وحقيقة المعجزة هي قهر الناموس المادي وإخضاعه لآيات الإعجاز، والسحر استخدام له بنحو غير مألوف وبصورة غريبة ، والشعوذة تخييل وتَعْمية، وبهذا نفرق بين المعجزة والسحر والشعوذة) ولا نرتاب في إتقان سننها الطبيعية وأحكام أنظمتها المادية، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا، أما جهاتها الأدبية ومن حيث الحكمة والإنصاف والسداد فإنّا نقف حيارى مذهولين.

استفهام خيالي يقربنا من الحقيقة

يمرّ في ذهني استفهام خيالي يقربنا من الحقيقة ويصح لنا أن نمتصها منه، وهو هل هذا العالم جنين؟ وهل قيام الساعة عند اشراطها طلق ومخاض؟ وهل العالم الآخر الذي نتصل به هو شبابه وكماله عندما يتخرج من مدرسة الأبدية؟ وهل هو مبدأ لتكوين عالم أعلى منه وأرقى، وإنّ أدواره الأدبية تنقسم هكذا؟ فقد كان نطفة عالمية في أصلاب السرمدية وانحدر منها إلى أرحام الأزلية ثم يعبرها إلى أن تتفتح له أبواب الأبدية وإنّ الفروض والآراء التي فرضها النشويون للمادة بما هي مادة يصح لنا أن نفرضها بعين ذلك الفرض لهذا العالم من جهاته الأدبية، فنحن سائرون بالزوال إلى الكمال ومتدرجون بالفناء إلى غايات الإتقان في البقاء.

الحكمة في الوقائع وقياس الفطرة

لا ريب أنّ لنا في طبيعتنا قوّة فطرية نقيس بها حكمة الحوادث والوقائع ومعنوياتها ونحكم بصوابها أو خطئها بلا تعلم ولا درس، والشعور بالانقباض والارتياح حسّ غريزي في النفس، فما يجري من الحوادث على طبق الحنوّ والشفقة والمروءات نشعر بارتياح له وإن كنا لا نعرف شيئا من أطراف تلك الواقعة التي شعرنا بالارتياح أو الانقباض منها وما يجري منها على طبق الظلم والعدوان والجبروتية نشعر باشمئزاز منه وانقباض، فلو بلغك إنّ شخصا أنقذ آخر من هلكة أو وبال ارتحت لذلك وإن لم يكن لك علاقة بأحدهما، كما إنّا نتمنى الانتقام من كل أثيم معتد وإذا شاهدنا أنّ شخصا فوجئ بإزهاق نفس ولده الوحيد معقد أماله ومجمع ماله ومجدّد شبابه، فمثل هذه الحادثة إذا محصناها بذلك القياس الفطري والاعتبار الغريزي، وجدناها في حد نفسها من اقبح أفعال الظلم والعدوان، وكل حادثة من فقر أو شقاء أو مرض أو موت، لا نعجز عن تتبع أسبابها الطبيعية ويستطيع العلم والعقل أن يعللاها تعليلاً صحيحاً معقولاً ويظفرا بالنواميس الطبيعية المقرّرة التي أنتجتها ولكن إذا قسناها بذلك المقياس الفطري الغريزي وحاولنا تطبيقها على أحكام العقل، رأينا فيها خللا أو نقصا لا يزيدنا إلا جهلاً ولا يزداد البحث فيها إلا تعقيداً حتى يقودنا ذلك إلى الشكوك وتضارب

الظنون، وكم جرى ويجري لكلّ واحد منّا من هذه الهواجس؟ وتعتريه الحيرة والذهول وينشد الحكمة الخالقية وعناية الإبداع فلا يجد لهما أثراً، والعالم مملوء من قبيل هذه الحوادث والوقائع.

ومرادي بالوقائع الأدبية والمعنوية، هي تلك الحوادث والوقائع التي نندفع لها برغبات نفسية والتي نقسمها بالنظر إلى أحكام العقل وذلك المقياس الفطري وباعتبار تأثيرها النفسي وما يلزمها من صلاح وفساد إلى عدوانية وغير عدوانية، وبالمادية هي تلك الوقائع الجارية في الكون بتفاعل المادة والقوّة بهذا الاعتبار وغيرها من الظواهر الجوية والحوادث الفلكية والأفعال الكيماوية ونواميس النموّ في النبات والحيوان وجميع الكائنات باعتبار تسلسلها عن أسبابها وعللها، وحرصي في أن تشاركني في شعوري ويختلج في نفسك ما يختلج في نفسي يحثني أن أزيد البيان وضوحاً، إنّ وقائع الكون المادية لا يشذ منها شيء عن أحكام العقل، والعلوم الفلكية والطبيعية والرياضية قد تكفلت ببيان ذلك، وهي كلها ذات وتيرة واحدة مرتبطة بأسبابها ومسخرة لنواميسها وما سمعته وتسمعه من أنّ الطبيعة عمياء، وأنّ فيها شواذاً وغلطات، فذلك إنما نشأ عند القائلين به من جهة ما اختلط عليهم من الاعتبار المادّي بالاعتبار الأدبي، فالعمى والغباوة المادية في الناموس ليس لهما وجود بالمرّة وكلما يكون فهو طبق الناموس ولابد من أن يكون وإنما يكون ذلك في المناهج الأدبية والقوانين المعنوية فالوقائع اغلبها بهذا الاعتبار لا تخلو عن غموض وإبهام.

والوازع الديني وجميع الشرائع والسنن الأدبية ليس لها من قوّة التأثير، تلك القوّة التي في تأثير الحرارة في التمدد، والشرائع المدنية والقوانين الإلهية لا تستطيع أن تنتج مفعولا واقعاً لا محالة بالاضطرار وهي دائما مقهورة من قبل رغبات العصاة والملحدين والمتمرّدين، والخلل في الحوادث الأدبية لا يدل على نظام متقن ولا نرى فيها حكمة ولا رابطة، فإنّ الأدب الفطري والشعور الغريزي يقضي على فاعل الخير بالخير وفاعل الشر بالشر ونحس بالشفقة على الحزانى والمصابين وإنّ في النفوس نخوة تستدعي نصرة المظلومين على الظالمين.

وإذا نظرت في صروف الدهر وطوارقه وقوارعه ونكباته وفتشت سجلات التاريخ عن نوائب الحرب العظمى وذهبت صعداً إلى آخر ملمة وبطش وقسوة فيه، أدهشك هذا الصراع الأحمر واصمّت أذنيك آهات البائسين وأنات المكروبين، فكم قوم هم في الذروة والسنام أكبّهم الدهر وصدمهم بكلكله، وقرعهم بنوائبه ووطأهم بسنابكه، وكدمهم بأنيابه، وفي الوقائع الشخصية والماجريات اليومية في كل يوم وليلة من الأذى والحرمان والتعاسة والشقاء ما فيه بلاغ مبين، ومن الغريب أن يظن الظان إنّ هذا العالم بالغ كماله الأدبي وجار في حالة الرّاهن على نظام معقول معنوي، وأكثر ما فيه من سعادة وهناء، فإنهما شقاء وعناء لآخرين ونجاح هذا فشل وخيبة لذاك، والظفر والغلبة والافتراس من اعظم مسرّات الحياة وهي بعينها من اعظم واشّد دواعي الشقاء، وقد مرّت عليّ وعليك من الحوادث والوقائع مالا يكظمه صبر ولا يسليّ عنه

أجر، ويقول بعض الفلاسفة الحياة كلها أحزان، الولادة حزن والكبر حزن والمرض حزن والاجتماع مع من لا نحب حزن والانفصال عمن نحب حزن وجميع علاقاتنا الخمس في حطام هذه أحزان. ويقول آخر خير للإنسان أن لا يولد، وإن ولد فليمت حالا، والحياة من أوّلها إلى آخرها شقاء وتعاسة، وسعادة الحياة ليست في حاضرها بل في الماضي قبل الحياة وفي المستقبل بعد الحياة، وهذه أوربا بلاد المسرّات لم أرَ في شعراء العالم من يستطيع أن يصف البؤس والتعاسة مثل ما يصفه شعراءها ولو لم يكن الشقاء ماثلا لهم بتلك الدّرجة لم يواتهم ذلك الخيال الرائق. فالعالم مملوء بالشرور وبدواهي الموت والأمراض والأوجاع والفقر والبلايا والمحن وفقدان الأحبة والانحطاط بعد الرفعة والذّلة بعد العزّة وليس فيه هناء ولا صفاء، ولو استسلمنا إلى شعورنا وحاسبنا الأيّام على حوادثها والحياة على أحوالها لرأينا هذا العالم من خلال حجاب أسود.

وإذا حسبت سني ثم نقصتها زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

فهذه الحكمة الفائقة في كلّ عمل من الأعمال من حيث تكونه المادّي، لا نرى منها شيئاً فيه من حيث تكونه الأدبي، ويتضح إنّ في هذا النظام نقصاً من جهة معلومة من حيث الأدب والمعنى لا يصلحه إلاّ تبدل الغرائز وانقلاب الركائز، ويستحيل على عقولنا أنّ تقتنع إنّ هذا الحكيم المتقن الصنع ترك هذا العالم سدى من هذه الجهة بما فيه من نقص وظلم وإجحاف، ولابدّ من أن يسدّ هذا النقص ويتدارك هذا الخلل، وهذا العالم بهذا الوضع وبما هو عليه من الكيفية لا يمكن فيه ذلك ما لم تتبدل

الغرائز وتتحوّل الرغبات ويتجدّد الوضع وينقلب الطرز ويعود سوء الاختبار إلى ما هو شبيه بالاضطرار ويكون ذلك النظام الثاني متمماً لهذا النظام وفيه الشفاء من هذا الدّاء، وهذا معنى أن يكون لنا عالم ثانٍ لا حيف فيه ولا عدوان، ويكون صلاحه مرتبطاً بما وقع النقص والخلل من جهته، ولابدّ من أن يوجد من وقع عليه الخلل والنقصان بوجود غير مشابه بالمزاج النفسي والغريزة الرّوحيّة لوجوده الأوّل وهو البعث والمعاد وموازين الديّمومة والعقاب طهارة من الذنوب ونتيجة لازمة للخطيئة نستعد به للبقاء والخلود.

فالمعاد لابدّ منه في الحكمة الخالقية ولا محيص عنه في العدالة الإلهية، والصانع الحكيم لا يعقل أن يتم شيئاً ويدع الآخر ناقصا، ولابدّ من أن يكون قد أعدّ للناقص هنا كمالاً في عالم آخر، وكوننا لا نعرف وقته بالضبط لا يقضي بإنكاره وجحوده، ومتى عرفنا مبدأ هذا العالم حتى نعرف منتهاه؟!.

أقوى حجة لمنكري المعاد

ولقد طال النزاع والجدال بين جاحدي المعاد ومثبتيه، وتضاربوا بالحجج، وركن كلّ واحد منهم إلى قضايا اقناعية جدلية ليس في النظر فيها وفي تمحيصها فائدة، وإني راغب أن أودع هذه الوريقات ما يمحصه العلم الصحيح وتشهد له التجربة والامتحان، وزاهد فيما عدا ذلك مما يكون من قبيل الشعر والخيال، وقد خلت هذه القرون ممن ينقادون إلى الأقيسة الجدلية التي لا تتركب على أساس علميّ، نعم توجد من بين حجج جاحدي المعاد حجة يمكن أن تكون من أقوى حججهم وأصعبها حلا، وقد عالجتها عقول المثبتين واقتنع بها كثير من الجاحدين، وإني أوردها لك واروي لك آخر ما توصل إليه المثبتون في حلها وأتحفك بحل لها يطيّرها شعاعاً ويصيّرها هباء بتوفيقه عزّ شأنه.

قال الجاحدون إنّ الهيكل الإنساني عندما يفاجأ بالموت تنحل عنه الرابطة الحيوية ويصبح عرضة لسائر تفاعلات المادة والقوة ومن ثم يبتدأ فيه دور التلاشي وتندّك موّاده الأصلية في هياكل أُخرى حيوانية وتندمج في قوامها والأمر وشيك حتى تغدوا مواده التي تألف منها غصنا في شجرة وعذقا في نخلة وزهرة في حديقة ونسيجا في دماغ بهيمة وسمّا ناقعاً في أنياب أفعىً وحاشية من حصاة، وحتى قال بعضهم إنّ ذرّة الكربون التي قامت بتكوين جزءاً من رئة نبينا آدم(ع) قامت بتكوين

ملايين ملايين من الرئات، وهكذا مدى الأيام حتى يكون الذي قبرناه في التراب مقبوراً في أفئدة الملوك وحشايا الصعاليك وملحوداً في بطون الأسماك وأطراف الأراك، وهذه هي الشبهة المعروفة بشبهة الآكل والمأكول.

وإذا أردنا أن نستدعيه يوم الحشر ونعيده ساعة النشر من مظانه ومواضعه، اضطررنا أن نجبر مواضع النقص بخلق جديد ثم نخلده في النعيم والجحيم وتبقى عندنا أرواح بل هياكل ونفوس بلا أجسام، وكيف يرضى بهذا ذو جنان ويقتنع به ذو وجدان؟!.

آخر ما سمعناه في ردّها

وآخر ما سمعناه في رد هذه الشبهة ودحضها، إنّ الإنسان الحقيقي المخاطب المكلف المعاد المنعم المعذب، هو تلك الذّرات التي قبضت من الأرض أوّلا في كلّ إنسان وهي باقية لا تتبدل ومتماسكة لا تتحوّل وهي الجزء القائم الذي أخذ عليه الميثاق مع الرّوح التي يحلّ فيها، والهيكل الإنساني المشاهد هو الأجزاء الفضلية ولا عبرة بها في تحقيق الإعادة، سواء أعيدت بأعيانها أو بأمثالها، بل العبرة في تحقيق الإعادة هي الأجزاء الأصلية التي لا يطرأ عليها إلاّ مفارقة الأرواح، وانسلاخ الأجزاء الفضلية عنها وفي البعث تعاد إليه الروح وتعاد الأجزاء الفضلية وتنضم إليها، وأما تلك الأجزاء الأصلية فهي متماسكة لا تنحل ولا تندكّ ولا تندمج ولا تصلح لان يتقوّم بها كائن من الكائنات. وسبقهم آخرون في دفعها بما ذكروه من عالم المثال، وصفح عنها قوم لأنها شبهة مقابلة البديهة واليقين من أمر المعاد، واستراح من آمن بالنصوص الدينية والأنباء السماوية وعموم القدرة الإلهية .

دفعنا لهذه الشبهة بالنظر العلمي

والمقصود لنا الآن النظر فيها من الجهة العلمية بعد أن ثبت عندنا البعث والمعاد وإنّه لا سبيل إلى إنكاره، وإنّ محط الشبهة هو المبعوث والمعاد وإنّه ما هو؟ وإنّ الاستنتاج العقلي هل يمكن أن يوصلنا إلى نتيجة يعضدها شاهد من قواعد العلم لا يلزم منها أمر مستحيل ولا تكون فرضية نظرية محضة؟.

لقد أصبح من البديهي الذي لا يقبل التشكيك أنّ أجسام الأحياء الحيوانية والنباتية مؤلفة من كريّات وخلايا تنتهي إلى دقائق وذرّات وإنّ تلك الدقائق إذا امتصتها الأجسام الحية وغارت في أعماقها ودخلت في قوامها لا تبقى راسخة مغروسة فيها حتى تنحل رابطتها الحيوية، بل أجسامنا لا تزال في تجدد ودثور وكل دقيقة من دقائق الجسم الحيّ لا تبقى مكظومة فيه وفي كلّ يوم بواسطة الغذاء والاندثار نحن بالنسبة إلى دقائق أجسامنا في تجدد وانهدام، وليست دقائق يدي هذه التي أحرر لك فيها هذه النظرية هي تلك الدقائق التي كنت اكتب بها عام أوّل، والهزال والسمن يكونان على نسبة التجدد والانهدام. وهذه النظرية من مصححات العلم الفسيولوجي وعلى هذه الناموس تبتني جملة من الأحوال الطارئة على الجسم الحيّ.

وإذا صح هذا فهب ذلك الهيكل الإنساني، امتص جملة من دقائق هيكل آخر، ولكن من أين يصح لنا أن نقول إنّ تلك الدقائق دامت فيه إلى حين الموت؟ ومن الجائز المعقول أن تكون أجزائه المستعارة انهدمت عنه في جملة ما انهدم من دقائقه وانفصل عنه لتعود إلى تأليفها الحيوي الأول ويكون حين الموت مؤلفاً من دقائق لم تمرّ في جسم من أجسام الأحياء، وتكون العارية قد ردّت والأمانة قد استرجعت والشبهة بفضل العلم الصحيح قد انحلت، ويكون ذلك سرّاً من أسرار الإبداع الإلهي وآية من آيات التكوين السماوي سبحانه وتعالى عما يصف الواصفون ويكفينا من هذا الحل أن يكون للمبعوث وجه ممكن لا يلزم منه محال، وقد وافيناك بلباب الأمر وخلاصة البحث، وتركنا الفروض والاحتمالات فخذها من المطوّلات، هذا آخر ما لزمنا بيانه من حال النشأة الأخرى وللعلامة السبزواري في «شرح دعاء الجوشن» طبع إيران سنة ١٣٢٢. كلام نختم به هذا الفصل غار فيه بأعماق الخفاء واغرب فيه ما شاء، دفعته إليه الشبهة الموروثة على البعث والمعاد ولم يجد له مخرجاً منها غير ما اقترحه اقتراحاً وابتدعه ابتداعاً من معان غيبية صيغت في مبان لغزية والفروض والدعاوي وبالأخص إذا كانت متعلقة بعوالم أُخرى محجوبة عنّا لا تنتهي ولا يصح لنا الإذعان بها ما لم يرتفع الحجاب ويهتك الستر، واغرب من ذلك أن تستظهر تلك الدعاوي من تلك النصوص التي لا تصلح حتى ولا رموزاً لها وألفازاً بها وهذه الآراء والفروض من هذا الأستاذ المتألّه كلها شروح وتفاسير للأدلّة الدّالة على أصل البعث والمعاد استنتجها من تلك الأدلّة ومن مجموع الشبه التي

أوردت على المعاد والخلود.

ويلزمه أن يعتذر لعدم التصريح بها بأنها من الأسرار الغامضة التي لا تدركها العامة، ولاتصل إليها أذهان الأغرار، أترى إنا لو التقطنا بدويا من بحبوحة القفار وأخرجناه من الكهوف والوديان، ووضعناه في إحدى شوارع المدن الكبرى وأريناه مدهشات العمران وغرائب الاختراع وأرجعناه إلى حيث أخذناه وأراد أن يخبر قومه ومعشره بمشاهداته فلا يستطيع ذلك بغير المجاز والكناية والتمثيل بمشاهداتهم ومنظوراتهم. وهكذا يكون القياس فيما نحن فيه، ولكن إذا انتهى الأمر إلى العجز عن حلّ الشبه إلا بالتأويل، والتجأنا إلى الأساليب العرفانية واعتمدنا الرموز والإشارات، لزمنا ما هو أشكل واستلزم ذلك اعترافاً صريحاً بأن تلك الظواهر لا تنطبق علي أحكام العقل واصبح الهدى رهن الألغاز وارشد قيد المعميات والتأويل باب واسع والخيال لا ينتهي إلى حد.

البعث في كتب الفلاسفة

واغلب ما نقرأه عن البعث والخلود في كتب الفلاسفة المتقدمين والمتكلمين الإسلاميين، من قبيل الشروح والتفاسير للنصوص الواردة في باب المعاد والخلود، وقد اتكلوا كافة في إثباتهما عليها وصرفوا اهتمامهم لدفع الشبهات التي أوردت عليها، كشبهة إعادة المعدوم والأكل والمأكول، والمعاد ركن أساسي في الديانات وفي الدرجة الثانية من الاعتراف بالخالق،ج وقد قطع الإنسان هذه القرون الطويلة في هذا العالم بين فريقين: فريق متدين وآخر ملحق بدرجة الحيوانات. فمن ادّعى إجماع العقلاء عليه فلا يكذب، أما العقيدة المادية البحتة بحدودها المعروفة فهي وليدة القرون الأخيرة، وما تراه من آراء الأشذاذ في القرون المتقدّمة يشم منها رائحة الإلحاد، فهي من قبيل ما يسمّى بالشعر الإغريقي في الأغلب وهو ما يوحيه الخيال من كلّ ما يتخطر في البال ويعبر به عما يجول في النفس لساعته من دون تقييد.

وما ذكره العلامة المذكور لم يسبق إليه فيما أطلعت عليه، قال بعد ذكر أقوال ثلاثة في المعاد الجسماني المحض لفرض الرّوح من قبيل الجسيمات والرّوحاني والمرّكب منهما، إنّ البعث يكون للأرواح في قوالب من الصور العرية من المواد وهيّ الصور الآخروية فبعد أن قسم العالم إلى عالم الحقائق وعالم الرّقائق وهذا الثاني إلى عوالم منها عالم

الصور، وهو عالمان، عالم الصور الصرفة والأشباح البحتة وهي المثل المعلقة العرية البرية من المواد، وعالم الصوّر المادية القائمة بها لا بذاتها، والأولى صور متجوهرة قائمة بذاتها والأرواح تتعلق بها يوم البعث وليست هي صورا بلا معنى وأشباح بلا حياة، وذوات الصور المادية أظلة وأشباح لتلك الصور المتجوهرة، وإنّ هناك كوناً صورياً صرفاً فيه بازاء كل شيء في هذا العالم صورة قائمة بذاتها لا بالمادّة وهي الأبدان الآخروية التي هي مراتب للأبدان الدنيوية، والكون الصوري لبساطته لا ينحل والرّوح تركب تلك الصور في المنام، ثم قال: والهوهوية محفوظة في جميع المراتب بل على ما حققنا من معنى الهبوط والرّجوع ونحوهما في هذا الشرح وغيره من أنّ الحقيقة هي الرّقيقة بنحو أعلى والرقيقة هي الحقيقة بوجه ضعيف فكينونة الرقيقة في نشأة سافلة عين كون الحقيقة فيها بلا تجاف عن مقامها، وهي هبوط الحقيقة وكينونة الحقيقة في مقام شامخ إلاّهي عين كينونة الرقيقة فيه بلا انتقال أيني ولا حمل ولا نقل لأعباء خصوصيات النشأة السافلة على كاهلها إلى النشأة المقدّسة العالية وهذا عروج الرقيقة، ففيما نحن فيه حشر الرّوح المجرّد إلى غاية وكمال وبروزه في موطن ومثال، حشر الجسد بعينه إليه لمحفوظية الهوهوية بما ذكرنا من غلبة جهات الوحدة وقاهريتها ومقهورية جهات الكثرة والتمايز. كيف والجسد البرزخي والآخروي أيضاً محفوظ وهو ما به يرتبط هاتان الحقيقة والرقيقة اعني الرّوح المجرد المحشور والجسد الدنيوي، بل يمكن أن يقال ما يرّد على هذا الجسد الدنيوي بعد الموت من مقبوريته وضغطه ووحشته وهجوم الحشرات عليه وارد على ذلك الروح المجرّد، لأن

الهوهوية هنا أيضاً محفوظة ولو باعتبار ما كان من قبل، ثم قال: والغرض من هذا كسر صورة الاستبعاد في حفظ الهوهوية في الجسد الدنيوي والبرزخي والآخروي وإلاّ فعذاب القبر وثوابه وعذاب الآخرة وثوابها كلها تردّ على الجسد البرزخي والآخروي، والجسد الدنيوي يُدثَّر وهما باقيان والأمور الآخروية كلها باقية ودائمة، والفرق بين الجسد البرزخي والآخروي، بل جميع الأمور البرزخية والأمور الآخروية بالشدّة والضعف والصفاء والكدر، فإنّ الإنسان بعد موته مادام كونه قريب العهد بالدنيا ومتوّجها إلى القفاء فجميع ما يشاهده ويراه يكون ذا حظ من الجانبين كما هو حكم البرزخ ولا يكون في الصفا مثل الصور الآخروية أما إنه كيف يكون الجسد الآخروي بعينه هو الجسد الدنيوي والدنيوي منحل وغير باقٍ؟ فإنّا نقول:

أوّلاً: بقاء الآخروي بقاء الدنيوي بمقتضى القواعد السابقة.

وثانياً: إنّ الجسد الدنيوي باقٍ في حدّه ومرتبته، إذ الصورة لا تعرضها صورة أُخرى، فإنّ الصور متعاندة متنافرة لا يمكن تردّ واحدة منها على الأخرى، نعم الهيولي تقبل صورة ثم تخلع عنها تلك الصورة بعد ذ٢لك وتكتسي بدلها صورة أُخرى، ولا يمكن أن تكون صورة بنفسها صورة أُخرى، فلا يصير لحم البدن مع حفظ صورته تراباً، وكذا التراب دوداً. فصورة البدن الدنيوي في حدّها ومرتبتها أزلاً وأبداً صورة بدن، وكذا كلّ ذي صورة في حدّ ذاته هو هو. ومعنى إنّ البدن صار تراباً إنّ هيولاه خلعت صورة واكتست أُخرى. والحاصل إنّ الصور جميعا كانت

آنيات الوجود أو زمانياته طال الزمان أو قصر باقية في وعاء الدهر كما أنّه لا ينقص من خزائنه شيء، وبهذا يندفع شبهة الآكل والمأكول، إذ أن صور أبدان المؤمنين المأكولة للكافر لا تصير صورة الكافر بل كل صورة لصاحبها والمادة هي المتحولة في الصور سواء كانت هي الهيولي الأولى أو الجسمية المطلقة أو الامتداد المطلق أو الأجزاء التي لا تتجزّأ أو الأجرام الصلبة الصغار، ولما كانت الأجسام الآخروية صوراً صرفه بلا هيولي فلا تصادم ولا ازدحام فيها ولا مكان لها من جنس أمكنة هذا العالم، بأن يكون في شرق هذا العالم أو في غربة أو علوّه أو سفله في الصور التي في عالم مثالك الأصغر سواء تراها في يقظتك أو منامك، ولا تتطرق شبهة التناسخ لان تلك الصور من النفس كالظل اللازم لا كالمادّة المستعدة لها كالأبدان الدنيوية وإن شئت فسمّ ذلك تناسخاً ملكوتياً.

الكلام في البرزخ

لا تستغرب إذا رأيت في هذه الرّسالة من مناهج الاستدلال مالا يكون مألوفا في مثل هذه المباحث، فإنّي لم اكتب ما كتبت لمن يؤمن بها عندما تروى له رواية أو تتلى عليه آية فهذا مهتدٍ بإيمانه ومطمئن بمواثيق جنانه، إنما أردت أن أعالجها من طريق يؤمن به الملحدون ويقدّسه المشككون والجاحدون.

قبل كل شيء لابد من أن نذكر المعنى الذي حاولت جملة النصوص الدينية والأنباء السماوية كشفه وبيانه، ثم النظر في موافقة الحساب العلمي والقياس النظري له، وهل توجد ما بينهما نقاط مختلفة هي مثار الشبهة والإشكال أو لا يوجد بينهما شيء من ذلك؟.

والمعتمد في هذا البحث هو عقائد الديانة الإسلامية وخصوص ما كان مأخوذاً عن الأئمة الهداة وأهل البيت سلام اللّه عليهم، ومرادنا بالبرزخ تلك الأحوال والأهوال الجارية على الإنسان من حين الموت إلى حين البعث التي هي إنموذج أحوال القيامة ونمطها وهي البشارة والإشارة لنعيم الجنان وحميم النيران.

هي بالنظر إلى جميع ما ورد علينا من الآيات والرّوايات تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما هو واقع في القبر على المقبور أو على بدن الميت وإن لم يقبر من المسائلة والضغطة وغيرهما مما لابد فيه من بدن حيّ حساّس مدرك واجد لهذه النعوت المضّادة لصفة الموت.

الثاني: ما هو واقع على الأرواح والنفوس بعد ذلك من التنعيم والعذاب.

البرزخ في القرآن الكريم

أما آيات الكتاب المبين فلا يتحصل منها هذا التفصيل بهذا الوضوح، وكل ما جاء فيه إشارة إلى أن هناك برزخاً بين الموت والبعث وإنّ فيه نعيماً ورزقا لبعض المطيعين وعذاباً للعاصين، وبيان سبيله الإجمال وتلويح في سديد من المقال، والذي يهمنا التعرض له هو الكلام على القسم الأوّل من القسمين وإنّه كيف يلاقي الميت وهو ميت ذلك الهناء والشقاء الجثمانيين؟ فهو مورد الشكوك والشبهات التي أسلفناها في أوائل هذه الأوراق ولأجلها اعتمدنا تأليف. هذا المؤلف أما القسم الثاني وما يلحق فيه من اللذة والألم والعذاب والنعيم الرّوحاني فلا يلزم عليه شيء من ذلك، والشبهة فيه منحلة بطبيعتها ومن عند نفسها، فلا يرّد بالنسبة إليها شيء من الإشكالات الماضية، فإنّ الرّوح مما يصح عليها الثواب والعقاب وأما أنها تفنى أو تبقى إلى حين البعث، وإنها تكون في هياكل مثالية، وإنّ الذي ينعم فهو من محض الإيمان وإنّ الذي يعذّب فهو من محض الكفر ويلهى عما سوى ذلك، فهذه المباحث كلها لسنا نحن الآن بصددها .

وليعلم قبل ذكر الملخص من الرّوايات عن الأئمة الهداة، إنّ علماءنا المتقدمين والطبقة الأولى من المحدّثين رضوان اللّه عليهم، إنما فحصوا

التكليفية، وماله مساس بالقوانين الإلهية والأحكام الإسلامية، أما عدا ذلك مما يتعلق بالثواب والعقاب والأخلاق والتاريخ والطب وجملة ممّا يتعلق بتفاصيل أمور تتعلق بأصول العقائد وغيرها، فقد أهملوا النظر فيها، ولم يمحصوها ذلك التمحيص ولم يبالغوا في التنقيب عن أسانيدها، ولا نظروا في متونها ذلك النظر العميق. أما أصول العقائد التي يجب الاعتقاد بها فالأدلة عليها متوفرة ومتكثرة وليس الطريق إليها منحصراً في الأحاديث والرّوايات، وإنما لم يفعلوا ذلك لأنه لا يتوقف على شرحها وتفاصيلها إلزام شرعي ولا واجب ديني، وقد سطرت في جوامع الأخبار على علاتها غير مُنقب في متونها ولا ممحصة أسانيدها، وقد حشرت من كل حدب وصوب فجملة الأخبار الواردة في هذه الأبواب لا تسكن إليها النفوس ولا تطمئن بها القلوب إلاّ ماوافقته العقول وأسندته الأصول ولم يعتمدها جميعها حفظة الدين وأمناؤه. وقد كان بعض أساتذتي المتبحرين يقول إنّ المحدثين الذين حشروا تلك الروايات وملئوا بها الطوامير والسجلات لم يحسنوا بما صنعوا وإن اتعبوا أنفسهم جزاهم الله خيراً، فإنّ في تلك الرّوايات من الوضع والحشو والدس والتحريف مالا يصح نسبته إلى أوائل العقول فضلاً عن أن نتخذه وحياً إلهياً بلّغه أئمة الهدى ومصابيح الدجى، ونزّتبه عقيدة إسلامية، ويا حبذا لو تألفت لجنة رجالها من الأساتذة المتبحرين والعلماء القديرين العارفين بنقد الحديث وطرق تحمله، فيميزون الصحيح من المدسوس، والحشو من اللباب والدر من المخشاب، ويخدمون بذلك الطائفة الأمامية خدمة لا تنسى مدى الأعوام.

أخبار البرزخ

وروايات البرزخ داخلة في تلك الجملة وإني ألخّص لك المعنى الذي توافقت عليه الأخبار والمضامين التي تواترت وتضافرت بها النصوص وما هو الخلاصة والمرجع، وهذا لابّد له من مخرج في النظر العلمي والقياس المنطقي أو تعجز عقولنا عن إدراك سرّه وخفيات أمره وغيب معناه، وأما مايوجد في بعض دون بعض فهذا إن كان له شاهد من العقل فهو ملحق بما تواترت عليه واتفقت، وأما ما لا يوجد له ذلك الشاهد ولا يؤكده مساند ولا معاضد فهو من أخبار الإلحاد وروايات الأشذاذ الأفراد لا يحسن بنا أن نتخذها رشدا أو نعتمدها هدى. والرّوايات الواردة في هذا الباب منها ما كانت واردة في تفسير آيات البرزخ، ومنها ما استقلت في بيانه، وهاك ما يتحصل منها، واكثر ما نذكره قد ورد فيه اكثر من رواية واحدة.

متون الرّوايات الواردة عن الأئمة الهداة(ع)

أمير المؤمنين(ع) في البرزخ

قال أمير المؤمنين عليه أفضل السلام: (حتى إذا انصرف المشيع ورجع المتفجع أقعد في حفرته نجياً لبهتة السؤال وعثرة الامتحان وأعظم ما هنالك بلية نزل الحميم وتصلية جحيم وفورات السعير لا فترة مريحة ولا دعة مزيحة ولا قوّة حاجزة ولا موتة ناجزة ولا سنة مسلية بين أطوار الموتات وعذاب الساعات). وقال(ع): (بادروا الموت في غمراته وامهدوا له قبل حلوله واعدوا له قبل نزوله ،فإنّ الغاية القيامة وكفى بذلك واعظاً لمن غفل ومعتبراً لمن جهل وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الإرماس وشدّة الإبلاس وهول المطلع وروعات الفزع واختلاف الأضلاع واستكاك الأسماع وظلمة اللحد وخيفة الوعد وغم الضريح وردم الصفيح).

وورد أنّ في القبر ضّمة أصابت سعد بن معاذ لأنّه كان سيئ الخلق مع أهله، والولد الصالح يستدفع به العذاب عن أبيه بعمله الصالح كما إذا آوى يتيماً أو أصلح طريقاً، وإنّ ضغطة القبر للمؤمن في قبره كفارة لما منه من تضييع النعم، والميت إذا مات ما بين زوالي الشمس من يوم الخميس

إلى يوم الجمعة وكان من المؤمنين أعاذه الله من ضغطة القبر، وإنّ رجلا صلى بلا وضوء فأوعد بالجلد مائة جلدة من عذاب الله فجلد جلدة واحدة من عذابه فامتلأ قبره ناراً، وإنّه ليس من مؤمن إلاّ وله ضمّة، وإنّ منكراً ونكيراً يأتيان صاحب القبر فيسألانه عن رسول الله، فإذا كان من أهل الشك وأجاب بأنّه لا يدري ضرباه ضربة يسمعها أهل السماوات والأرض، وإذا كان متيقناً فإنّه لا يفزع ويقول أشهد أنّ محمداً(ص) رسول الله، فيرى مقعده من الجنة ويفسح له في قبره، ثم يقولان له نَمْ أطيب ما يكون النائم، وإنّ عذاب القبر يكون من النميمة وسوء الخلق والاستخفاف من البول وإنهما يسألانه عن ربّه ودينه ونبيه، فإذا أجاب فسحا له في قبره مدّ بصره ويطعمانه من الجنة ويدخلان عليه الرّوح والريحان، وإن لم يجب فتحا له باباً من النار وينزلان إليه الحميم من الجحيم، ويسألانه عن كتابه وعن عمره فيم أفناه؟ وماله من أين اكتسبه وفيم أتلفه؟ وإنّ الذي يسأل فينعم[1] إن كان ممن محض الإيمان محضا، ويعذب إن كان ممن محض الكفر محضا، أما سائر الناس فيلهي عنهم وإنّ القبر أوّل منازل الآخرة، فمن نجا منه فما بعده أيسر منه ومن لم ينج منه فما بعده ليس بأقل منه، وإنّه سئل أبو عبد الله(ع) أيفلت من ضغطة القبر أحد؟ فقال(ع): (نعوذ بالله منها ما اقل من يفلت من ضغطة القبر). وإنّه يقال له نم نومة لا حلم[2] فيها وإنّ الملكين يقعدانه ويلقيان فيه الرّوح إلى حِقْوَيه فإذا تلجلج في الجواب يضربانه بمرزبة

(١) أي يجيب بقوله نعم.

(٢) غلبت الرؤيا على ما يرى النائم من خير والحلم على ما يرى من شر.

يتطاير بها قبره ناراً ولو ضرب بها جبال تهامة لكانت رميماً، وإنّ المصلوب يأمر الله الهواء فيضغطه وإنّ ضغطة الهواء اشدّ من ضغطة القبر، وإنّ الأعمال الحسنة تتجسم بصور حسنه يأنس لها في قبره، وإذا سألها قالت أنا العمل الفلاني، والأعمال السيئة تتجسم له بصور سيئة كذ٢لك، وإنّ العذاب كله في يوم واحد في ساعة واحدة قدر ما يدخل القبر ويرجع القوم وإنما جعل الجريدتان معه لذلك فلا عذاب ولا حساب بعد جفوفهما وإنهما ينفعان المؤمن والكافر. فهذه هي مضامين الأخبار والآثار الواردة عن الأئمة الأطهار(ع).

البرزخ في كلمات العلماء

قال الشيخ أبو جعفر الصدوق: «اعتقادنا في المُسائلة في القبر أنها حق لابد منها». وقال الشيخ المفيد في «تصحيح الاعتقاد» ما حاصله إنّ الآثار الصحيحة قد جاءت في إنّ الملائكة تنزل على المقبورين فتسألهم عن أديانهم ولا يُسْئل إلاّ من يفهم المسألة ويعرف معناها، وهذا يدّل على أنّ الله يحي العبد بعد موته للمسائلة، وقد ورد النص بذلك مؤكداً للعقل،و قال في«شرح المقاصد»: «اتفق أهل الحق على أنّه تعالى يعيد على الميت في القبر نوع حياة قدر ما يتألم ويلتذ، ولكن توقفوا في عود الرّوح وما يتوّهم من امتناع الحياة بدون الرّوح ممنوع وإنما ذلك في الحياة الكاملة التي تكون معها القدرة والاختيار». وقال الشيخ أمين الإسلام الطبرسي: «الحياة في القبر حياة برزخية ناقصة ليس معها من آثار الحياة سوى الإحساس باللذة والألم، وتوّقف بعض الأمّة في عود الرّوح إليه، والحق إنّ الرّوح تتعلق به وإلاّ لما قدر على إجابة الملكين ولكنه تعلق ضعيف كما يشعر به ما عن الصادق(ع) إنّ ملكا القبر يلقيان عليه الروح إلى الحقوين وقد يستبعد تعلق الرّوح بمن أكلته السباع أو أحرق وتفرّقت أجزاؤه يمينا وشمالا، ولا استبعاد نظراً لقدرته تعالى على حفظ الأجزاء الأصلية عن التفرّق أو جمعها بعده وتعلق الرّوح بها ما وروي عن الأئمة(ع) ما يدّل على إنّ الأجزاء الأصلية محفوظة إلى يوم القيامة. وذكر المجلسي في

«البحار» إنّ عذاب البرزخ وثوابه ممّا اتفقت عليه الأمة سلفاً وخلفاً، وقال به اكثر الملل ولم ينكره من المسلمين إلاّ شرذمة قليلة لا عبرة بهم، وانعقد الإجماع على خلافهم سابقاً ولاحقاً والأحاديث الواردة فيه من العامة والخاصة متواترة المضمون. ونقل العلامة في شرحه على التجريد إنّ زرارة أنكر عذاب القبر والإجماع على خلافه، وعن المفيد في «أجوبة المسائل السروية» إنّ عذاب القبر طريقه السمع دون العقل. وقد ورد عن الأئمة الهداة، إنّه لا يعذّب في القبر كل ميت. وروي عنهم إنّه لا يُسْأل كل ميت، إنما يعذب من جملتهم من محض الكفر محضا، ولا ينعم كل ماض إلى سبيله إنما هو من محض الإيمان محضا وأما ما سوى هذين الصنفين فهو ممن يُلهى عنه. أما كيفية العذاب والنعيم في ما بعد القبر، فقد ورد إنّه تجعل روحيهما في قالب مثل قالب الدنيا في جنة من جنانه يتنعم فيها إلى قيام الساعة، أو في محلّ يعاقب فيه إلى يوم البعث ثم لا يزال كذلك إلى حين الخلود في الجنان أو الجحيم بعد إعادة الجسد في تركيب لا يفنى، وقال في «المواقف» اتفق الإسلاميون على أنّ سؤال منكر ونكير في القبر حق، وعذاب الكفار وبعض العصاة حق، ونسب خلافه لبعض المعتزلة، قال بعض المتأخرين منهم حكي إنكار ذلك عن ضرار بن عمرو وإنما نسب إلى المعتزلة وهم براء منه لمخالطة ضرار لهم، وتبعه قوم سفهاء من المعاندين للحق، ونقل العلامة التفتازاني عن السيد أبي شجاع إنّ الصبيان يسألون وكذا الأنبياء يسألون عن ربهم ونبيهم إذا كانوا على ملة نبيّ آخر.

وللناس بعد ذلك في عذاب القبر أقوال وآراء، فأنكره قوم بالكلية وأثبته آخرون، ثم اختلف هؤلاء فمنهم من اثبت التعذيب وأنكر الإحياء وهو خلاف العقل، وبعضهم لم يثبت العذاب بالفعل بل قال تجتمع الآلام في جسده فإذا حشر أحسّ بها دفعة واحدة وهذا إنكار لعذاب القبر حقيقة، ومنهم من قال بالإحياء لكن من غير إعادة الرّوح، ومنهم من قال بالإحياء وإعادة الرّوح ولا يلزم أن يرى اثر الحياة فيه حتى إنّ المأكول في بطن الحيوان يحيى ويسأل ولا ينبغي أن ينكر لأن من أخفى النار في الشجر الأخضر قادر على إخفاء ذلك.

وللغزالي في المقام كلام على طوله لا ينفع في مرامه، فإنّه أورده دحضا لحجة من نسب إليهم إنكار عذاب القبر وسؤاله، فإنّ ما أورده وإن صح أن تدفع به إحدى جهتي الإشكال إلاّ أنه لا ينفع في الجهة الثانية إلا بتكلف، فإنّ الإشكال هنا من جهة نفس العذاب وماهيته من حيث إن ما ورد في كيفيته لا يمكن أن يعتقد به، فإنا لو كشفنا اللحد أوتركنا الميت ظاهراً غير مواري لم نجد تلك الأهاويل التي وصفتها الأحاديث ولا نسمع تلك الضربة التي يسمعها أهل السماوات والأرض، ومن جهة إنّ المعذّب جماد وكيف يعذّب الجماد؟ وهؤلاء الذين نسب إليهم الإنكار ركنوا إلى الجهة الثانية، قال في آخر كلامه ما مؤداه :إنّ الأحاديث الصحيحة التي هي أكثر من أنْ تحصى، والتي وإن كان كلّ واحد منها من الأحاد إلا أن ما اشتركت فيه من المؤدى والمضمون بالغ حد التواتر، وهي دالة على العذاب والسؤال وهو مما اتفق عليه السلف وأنكره مطلقا ضرار بن عمرو

واكثر متأخري المعتزلة وبعض الروافض متمسكين، بأنّ الميت جماد فلا يعذب، ثم قال: وما سبق حجة عليهم ومن تأمل عجائب الملك والملكوت وغرائب صنعه تعالى لم يستنكف عن قبول هذا، وللنفس نَشئآت وفي كل نشأة تشاهد صورا تقتضيها تلك النشأة فكما أنها تشاهد في المنام أموراً لم تكن تشاهدها في اليقظة فكذا تشاهد في حال الانخلاع عن البدن أموراً لم تكن تشاهدها في حال الحياة.

أما ما ذكره فيما سبق فمرجعه تارة إلى آلة العذاب وإنّ الأفاعي التي جاء ذكرها في الأحاديث أفاعٍ ملكوتية ومضمرات غيبية غير داخلة في نطاق الحس ويكون الإيمان بها كالإيمان بالملائكة والوحي، وأُخرى إلى أنه ليس في الوجودَين الحسي والغيبي شيء من ذلك إلاّ أنّ جسم الإنسان قد يتألم بما تخترعه مخيلته وتبتدعه من المؤلمات الخيالية بمثل ما تتألم بالمؤلمات الحقيقية، وذلك ما نشاهده في آلام النائم من أحلامه فإنه قد يفزع ويعرق جبينه من حلم يراه، وثالثة بما يرجع إلى نفس العذاب لا المعذب به، وحاصله إنّ المعذب يحس بألم بالدرجة والمشابهة مثل الألم الذي يحس به الملسوع ولا يمكن أن يعرّف ذلك الألم إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة والصفات والأعمال المهلكات تنقلب مؤلمات ومؤذيات، ثم قال: وكل ذلك في حيزّ الإمكان ومن ينكر بعضه فهو لجهله باتساع قدرة اللّه وعجائب تدبيره. والغزالي هنا افترى على الشيعة فلا يوجد ما نسبه إليهم في كتبهم، نعم قال به بعض ملاحدة الإسماعيلية وغيرهم ممن ألصق بهذه الفرقة المحقة وأيضا فكلما ذكره

فهو راجع إلى كيفية العذاب، وحجة الخصم إنّ العذاب كيفما يكون لا يصح على الجماد، وأما ما ذكره من قبول النفس لذلك في كلامه فلا يرتبط بالمقام فإنّ الكلام في العذاب الواقع على الأجسام الميتة في قبورها لا فيما هو واقع على نفوسها والذي ذكرناه ملخص كلامه وقد صغناه بقالب آخر فراجعه.

وحيث إني محصت لك نقطة الإشكال وألْمَسْتُكَ موضع الشبهة وحللت لك جهاتها، وإنّ جميع ما امتحن به العلماء من عذاب الرّوح ونعيمها وما اعتمدوه من فناء الرّوح وبقائها بعد مفارقتها للأبدان وإنها على تقدير بقائها، فهل تنتقل إلى أجسام مثالية تشابهها في اللطافة؟. لا تعدو عليها الحواس ولا تتقوّم في بنيتها بالغذاء والهواء وإنّ انتقالها إلى تلك الأجسام، هل يكون من التناسخ الباطل؟ أو إنّ التناسخ الباطل غير ذلك إنما هذا الانتقال إطَالةٌ في أمَدِ بقاء الرّوح، فإنّ تلك الأجسام المثالية اللطيفة التي هي أوعية الرّوح بعد الموت والتي لا تفنى هي هي تلك الأجسام المادية من حيث المساهمة والتقسيم وديباجة البنية والتركيب وإنما صعدت منها وامتصت من مجموعها وكأنها دور ثاني لهذا البدن الفاني وكما يستحيل الماء إلى البخار تستحيل الكثافة إلى تلك الطاقة بلا أن يضيع وسم أو يخلف طابع أو تفلت سِمَةٌ، فهي من حيث المزايا وأدق الخصوصيات رسوم شمسية وصُوَر ملكوتية غيبية لهذا المحسوس الملموس.

فهو كله خارج عن نطاق البحث الذي كان موضوعه بدن الميت في القبر

باعتبار وقوع العذاب عليه وتوجيه السؤال إليه، وظهر لك إن الشبهة تأتي علينا من طريقين: من حيث العذاب نفسه، فما هي لفحة لظى ونهشة الأفعى وكضّة الأرض والهواء، ومن حيث المعذب إذا كان جماداً لا يتألم وهيكلاً لا يتأثر.

أما من حيث الجهة الأولى فلا يمكننا أن نقود عقولنا ونسخر مداركنا بأنّ الأعمال الآخروية أعمال محدودة بالزمان والمكان والآلة، فإنّ الديمومة والخلود لا يمكن أن تحيط بهما الحدود والبطشة الملكوتية والكضة الجبروتية هما بطشة وكضة حقيقية إلاّ أنهما تتلاشى دونهما الآلة وتمتلئ حتى تتمزق عنهما الحدود الزمانية والمكانية فإنهما من ودائع الغيب ومخزون القدرة الإلهية.

وإنّ من الحكمة الفائقة والعناية الرائقة أن لا نحصى في قوانا البشريّة الفانية قوّة نستجلي بها حقائق تلك الأسرار الرّبانية ولو كانت تلك القوّة فينا لكان نظام الخليقة مهدداً من قبلها وأصبح المجتمع البشري رهن الرهبة والخشية، والعمران صوامع في فلوات وزوايا في فجوات مذعورين خاشعين، أو لا يبقى الأمر إلى هذا الحد فيبتدع العالم ويخلق الإنسان وعندما يبتدع ويخلق يفنى ولا يوجد فيه إلا آدم وحواء ريثما يشعران فيقبران.

فما اهتدى إليه أبو حامد في هذا الشأن مقبول لا تأباه العقول وإن كان الكلام الذي رويناه عنه، عَدّلنا تقسيمه واقتبسنا مخيضه إلاّ أنّ آراءه كانت البذور والنطف.

ولعلّ تخصيصه تعالى تلك المؤلمات بالذكر، رمز إلى أن في العذاب تجتمع عليه كلتا الشدتين ويكدم بكارثتين الألم ورهبة المؤلم، وكفى بمشاهدة تلك الأهوال من دون أن يصل إليه نصبها عذابا وقد أسلمه العشير والعدد وخذله الصاحب والولد، عصمنا اللّه من الذنوب وحرّم علينا ويلات تلك الخطوب، إنّه ارحم الراحمين. فهذا مدفع الشبهة من هذه الجهة واللّه الموّفق.

وأما الجهة الأخرى وهي أشد عقدة من الأولى واصعب مراساً، والذي يمكننا أن نعتبره جوابا عنها هو نقلناه عن شارح «المواقف» وحكيناه عن أمين السلام، وستعرف إنّ ما ذكراه لا يمكن التخلص به عن الشبهة بحذافيرها، ولابّد من التماس مخرجاً غير ما ذكراه مما لا يكون من قبيل الفرض والتخمين، ولابدّ في دحضها من الاستناد إلى تدليل لا يبتني على محض الفرض، ويكون مما تعضده المحاكمات العقلية الفلسفية المبنية على القواعد العلمية، ويمكن أن يستفاض الجواب الشافي من هذا الينبوع ويستنبط من ذلك المعدن الوّهاج وهو الكلمات اللماعة والزبر المحكمة جماع الهدى ومستودع سرّ الغيب المرويّة عن مولانا أمير المؤمنين(ع) في «نهج البلاغة» في خطبته المعروفة بـ(الخطبة الغراء) وهي قوله(ع): (لا فترة مريحة ولا دعة مزيحة ولا قوة حاجزة ولا موتة ناجزة ولا سنة مسلية بين أطوار الموتات).

الكلمات التي سبق ذكرها

فنقول ما من أحد لا تكون له قوّة التميّز بين المواد الحية والمواد الجامدة الميتة، والحياة من أظهر الحالات بالحس ولكنها من أخفاها على الإدراك والفهم، وفيها رأيان معروفان سبقت الإشارة إليهما:

أحدهما إنها مظهر من مظاهر القوى الطبيعية تلك القوى التي هي من نوع القوى الحاكمة على المادّة المسخرّة لها. فالحياة ليس لها سراً وليست هي عن شيء متميز في ذاته ومستقل في قوامه نسميه سرّ الحياة، فإذا مات الإنسان أنحلت روابط حياته التي هي تلك القوّى المشار إليها وتحللت عناصره وتلاشى.

وثانيهما إن الحياة متشعبة ومستمدة من أصل مستقل موجود في الكون تحت اسم الحياة، وإنّه لامناص من نوع القوى المسخرة للمادّة، فإنّ النظر المجرّد إلى الإنسان في مداركه العالية ومواهبه الرفيعة يدّل على أنّ فيه من القوى الرّوحية ما يعتبر أرقى من كلّ القوى الطبيعية، فإنّ تلك القوانين والنواميس لا تكفي في تعليل جميع ظواهر الحياة وبواديها. وقد قدّمنا لك لُباب ما استندت إليه أرباب هذا الرأي وعضدناه بالشواهد الحسية والنظرية.

ولا ريب ولا إشكال في أنّه لا يصح الاستناد في الاعتقاد بتلك القوّة

الرّوحية إلى نفس الظواهر الجسمية التي يسهل تعليلها بالمبادئ المادية والتي هي نتيجة تفاعل المادة والقوّة، فهذه البنية الإنسانية المحشوة في هذا الوعاء الجلدي المركبة من عظام وعضلات وأوعية وأعصاب وأغشية وغدد وأعضاء مختلفة التركيب وعظامها هي الأجزاء الصلبة التي يتركب منها هيكل الجسد، وعضلاتها هي الكتل اللحمية المبثوثة في جميع أجزاء البدن وأوعيتها دموية وليمفاوية، والدموية شرايين وأورده وأوعية شعرية، والليمفاوية هي ما تحتوي على مادة بيضاء ومنها على سطح البدن وأكثرها في الحشايا وأعصابها خيوط بيض دقيقة يصدر عنها الإحساس والحركة وأغشيتها منها ما هي مصلية ومنها ما هي زلالية وهذه البُنية بهذا التقسيم والنضد الذي أوضحته لك غاية الإيضاح لها ظواهر وأعمال هي بلا ريب نتيجة تسخير قوّى ماديّة لا تنفك المادة عن أسرها، كالهضم والإفراز والشهيق والزفير والامتصاص ودخول الدم إلى القلب وخروجه عنه كما تقتضيه الدورة الدموية والانقباض والانبساط بل والإحساس والألم وغير ذلك من الوظائف العضوية، ومنها جملة من الوظائف الدماغية وإن كان التمييز بين ما هو من أعمال الدماغ ووظائفه وبين ما هو من وظائف الرّوح عسراً جدّاً. ولعلماء النفس في ذلك مباحث غراء فهذه الوظائف والأعمال وما هو من قبيلها كلها لا نضطر من اجلها لاعتبار قوّة علويّة سماويّة مخالطة للجسد، ومن الجائز المعقول أن يبتدع الخالق خلقاً مادياً محضاً منقطعا عن كلّ ما هو خارج عن المنظور ويضعه بين أيدي النواميس الماديّة متغذياً نامياً حساساً وهذا نوع من الحياة ودرجة منها يوجد منها في الأحياء ما هو كذلك، والماديون

لم يعرفوا غير هذه الدرجة من الحياة ولم يدركوا ما وراءها وكمال الحياة في المرتبة وتمامها في الدرجة هي أن تفاض عليها تلك القوة الإلهية وتخالطها اللطيفة المجرّدة وتتشبث به تشبثا يعسر انفصاله ولم نجد في مكونات العالم جسماً تشتبك به الرّوح ولا يكون مالكا لتلك الدرجة من الحياة أو لما هو أبسط منها ولا يكون واجداً لمزيّتي الإدراك والشعور، وغيرهما من المظاهر العالية التي لا يجوّز العقل الحكم بكونها من منتجات النواميس الماديّة ما لم يكن متعلقا بتلك القوة السماوية وإن كنا لا نجد في دائرة العقل ما يمنع من ذلك وأي مانع يمنع من أن تفاض الأرواح على الأجسام الجمادية وربما يكون في مخزون علمه تعالى جمادات ذوات أرواح، فالحياة بتلك الدرجة وبذلك المعنى غير مستلزمة في تكوّنها وإبداعها إلى الرّوح، فكل حيّ لا يستلزم في العقل أن يكون ذا روح، وليس عندنا شاهد علمي على الملازمة بين الحياة المطلقة والرّوح. قال الأستاذ شيفر رئيس مجمع تقدّم العلوم البريطانية في خطبته التي موضوعها الحياة وماهيتها ومنشأها وحفظها، لا ريب أنّ الاعتقاد بأنّ الحياة والنفس شيء واحد نشأ عن تصوّرنا أنّ النفس لا يمكن أن تكون إلا مقترنة بالحياة، وإنّ هذا التصوّر إنما أمكن أن ينمو ويرتقي بالنظر إلى أرقى مظاهر الحياة في أرقى الأجسام الحية على أنّه يجب الفصل بين معنى الحياة ومعنى النفس فصلاً تاماً ما لم نرد التوّسع في معنى النفس إلى حد نجرّده عن كل معنى خاص به لأن المسائل المتعلقة بها إنما هي مسائل متعلقة بالمادّة إذ أنّه لا يمكننا أن نتصور وجود الحياة بالمعنى العلمي بلا مادّة، وطرق البحث في ظواهر الحياة هي نفس الطرق المتبعة

في البحث في كل ظواهر المادة الأخرى ولا يمكن أن يكون غير ذلك، ونتيجة البحث في ظواهر الحياة تدلّ على أنها خاضعة للنواميس التي تسري على الجماد. وكلما تعمقنا في درس مظاهر الحياة زدنا اعتقاداً بصحة هذا القول والحركة الذاتية أوضح مظهر من مظاهر الحياة فحركات خلايا أجسامنا والكريات البيض في دمنا وخلايا الأنسجة الموصلة وخلايا الأعصاب النامية وغيرها، كلها ذوات حركات ذاتية نعدها دليلاً على وجود الحياة فيها، ولا نرى استنتاجاً أقرب إلى العقل من هذا الاستنتاج. وفي كلامه هذا صراحة في أنّ الحياة في أبسط أشكالها كما في الأحياء المكرسكوبية خاضعة للنواميس التي تسري على الجماد، والأعمال المركبة التي تميز الأحياء الراقية كالحركة والتغذية والنمو والتوالد إنما نشأت في أثناء سير الارتقاء من الحركات البسيطة في أدنى الأحياء وهي مسخرة لنفس تلك النواميس.

والمقصود من هذا الاستنتاج إن مظاهر الحياة البسيطة والمركبة التي تقوم بها خلية واحدة أو عدّة خلايا لا تفتقر في حصولها بالفعل إلى قوّة أخرى غيبية غير قوّة الناموس المادي وهب أنّه لا يوجد في العالم حي كذلك فإنّ ذلك لا يضرّ فيما استنتجناه وهذه القضية منعكسة وهي جازمة لا يخالطها ريب، أي إنّ كلّ ذي روح لا يستلزم في العقل أن يكون حياً بهذا المعنى الذي ذكرناه للحياة، وشرح ذلك إنّ الحياة فينا كالحياة في جميع الحيوانات حياة مركبة من حياة أجزاء كثيرة، وحياة هذا الجسم عبارة عن حياة كل الخلية من مجموع خلاياه، فمجموع حياة

ملايين عديدة من خلايا الجسم حياتاً بسيطة هي حياة الجسم المركبة. ويمكن أن تنقضي حياة بعض خلايا الجسم مع استمرار حياة الخلايا الباقية، وهذا ما يحدث في أجسامنا كلّ آن، فإنّ الموت مستمر في الخلايا الوحشية التي على سطح أجسامنا، وهي التي تتألف منها البشرة والشعر والأظفار وما يموت تحل محله طبقات الخلايا الحية التي هي تحته وموت هذه الطبقة من الخلايا لا يؤثر في موت الجسم، نعم إذا تفرّقت أو اختلت خلايا مجموع جهاز أساسي في حياة المجموع كجهاز التنفس يموت الحيوان وتزول عنه الحياة بحسب الظاهر، ولكن هذا الحكم إنما يصح بمعنى خاص فحيث إن مظاهر حياة المجموع تقف لعدم وصول مقدار من الهواء يحتاج إليه في تطهير الدم فلو أدخلنا الهواء اللازم إلى الأنسجة عادت الحياة كما كانت، ومن المقرر عند علماء الحياة إنّه حينما يموت الحيوان لا تُزال الحياة من كلّ خلايا جسمه حالاً، لأن خلايا منها كثيرة تبقى حياتها إلى ما بعد الموت بزمن غير يسير إذا كانت الأحوال مناسبة، وقد يبقى جهاز بمجموع خلاياه حياً كذلك بعد الموت وإنما الذي يبطل ويزول هو أعمال الحياة المركبة ليس غير والرّوح لا تتوقف علاقتها بالجسم على استمرار تلك الأعمال التي هي من خواص الحياة المركبة فكلّ ذي روح لا يستلزم أن يكون حياً بالمعنى الذي ذكرناه للحياة.

وهنا انقل لك شهادة بعض الأطباء معتمداً فيها رواية الأستاذ شيفر في خطبته المشار إليها قال: «وقد اظهر ماك وليم إنّ خلايا العضلات في الأوعية الدموية تبدي ما يدّل على وجود الحياة فيها بعد ذبح الحيوان

الذي كانت فيه بعدّة أيام، وقد أحيا بعضهم خلايا عضلات القلب في ذوات الثدي وجعلها تنبض بانتظام وقوّة بعد الموت الظاهر بساعات كثيرة، وقد حصل كوليا بكو على هذه النتيجة في الإنسان بعد أن حكم بحدوث الموت بثماني عشر ساعة وفي العجماوات بعد مضي أيام»، وقال: «إنّه يمكن إن نستخلص من أنسجة مختلفة أدلة على وجود الحياة فيها بعد الموت بساعات كثيرة بل بأيام»، وشاهد شرنجتون كريات الدّم البيضاء حية تعمل بعد نقلها من الأوعية الدموية بأسابيع إذا وضعت في سائل مغذٍ مناسب، ووجد جولي أن كريات الضفدع البيضاء تبدي كلّ مظاهر الحياة بعد مضي سنة إذا وضعت في مكان بارد وكانت الأحوال مناسبة، وشاهد كاريل وباروز خلايا عدّة أنسجة وأعضاء تستمر على العمل والنموّ مدداً طويلة بعد عزلها ووضعها تحت المراقبة في وسط مناسب، وتمكن كاريل من نقل أعضاء كاملة من حيوان مات إلى حيوان آخر من نوعه بدلاً من الأعضاء التي فقدها، وقد أصبح نقل بعض أعضاء حيوان إلى حيوان آخر عملية جراحية معروفة في هذه الأيّام لغالب الجراحين وهؤلاء الأطباء الأساتذة التي نقلنا ذلك عنهم وإن كنت لا أعرفهم ولا وقفت على ترجمتهم إلا أن اعتماد رئيس مجمع تقدّم العلوم البريطانية على اختيارهم يكفينا شهادة في حقهم.

ومن هذا يظهر أن الجسم مركب من عدّة مجاميع حيوية ذات وظائف خاصة وهي مؤلفة من عدّة خلايا حية، وتلك المجاميع تختلف في درجة الأهمية بالنسبة إلى مجموع حياة الجسم وبعضها ألزم في حفظ الحياة

من بعض آخر فالخلايا التي تُؤلّف أعصاب المركز التنفسي والخلايا التي تُؤلّف جميع الأوعية القلبية والتي هي العمدة في تطهير الدّم ودفعه، إذا اختلت حصل الموت، ومن دون هذا الدّم الطاهر تموت اكثر الخلايا ولا يمكن حفظ حياة المجموع إذا كان التنفس والقلب واقفين.

فظهر إن ما نسميه حياة ليس خاصة واحدة لا تتجزأ وليست كذبالة السراج تنطفئ بنفخة واحدة ويمكن أن يوصلنا العلم لغاية أبعد من هذه.

فالرّوح التي برهنّا على علوقها بالجسد وجوزّنا أن تفاض حتى على الجماد حيث لا يوجد دليل على امتناع ذلك تبقى مشتبكة بهيكلها الجسدي ولا تفارقه بتاتاً إلا بموتة ناجزة تنحلّ فيها مجموعة مجاميع الخلايا الجسدية فهي متشبثة به مادامت فيه بقايا من الحياة ومستمرة معه إلى أخر موتة من موتاته، وهي التي سماها أمير المؤمنين(ع) بـ(الموتة الناجزة) ويكون سريان الموت في جسد الميت تدريجيا إلى أن تفارق الحياة آخر خلية حية فيه. وهذا معنى قوله بين أطوار الموتات وقد أشار سلام اللّه عليه لما قدّمنا ذكره في إحدى خطبه قال(ع): (اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت فَفَتَرتْ لها أطرافهم وتغيرت لها ألوانهم ثم ازداد الموت ولوجاً فيه فحيل بين أحدهم وبين منطقه وانه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بإذنه على صحة من عقله وبقاء من لبه يفكر فيما أفنى عمره...)، إلى أن قال(ع): (فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط سمعه فصار بين أهله لا ينطق بلسانه ولا يسمع بسمعه يردد طرفه بالنظر في وجوههم يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم

ثم ازداد الموت التياطاً به فقبض بصره كما قبض سمعه وخرجت الرّوح من جسده فصار جيفة بين أهله) ومراده سلام اللّه عليه بخروج روحه وصيرورته جيفة إن روحه بعد هذه الدرجة من الموت لا يمكن بقائها في جسده كما كانت فهي خارجة عنه مفارقة له إلى يوم حشره، وكما استعدت روحه للخروج من جسده فقد استعد جسده لأن يكون جيفة قد أوحش أهله من جانبه وتباعد وأمن قربه وتكون الجريدتان[1] التي مرّ ذكرهما في الأخبار رمزاً إلى مقدار بقاء الحياة فيه، وإنها باقية فيه مادامت خضراوين وان الميت بعد انقطاعه عن ينبوع الحياة كتلك الجريدة التي اجتثت من شجرتها وانقطعت عن ينبوع حياتها في بقاء الحياة فيها مادامت خضراء، وهذا معنى استمرار العذاب عليه مادامت خضراء وارتفاعه عنه إذا يبست فإنّه يصبح جماداً لا يحس بعذاب وهو الموت الناجز وما قبل ذلك موت بحسب الظاهر وهو مرادنا من قولنا إنّ كلّ ذي روح لا يستلزم أن يكون حياً بالمعنى الكامل من الحياة فما بين

---

(١) الروايات الواردة في تعليل وضع الجريدة منها ما دل على ارتفاع العذاب والحساب عنه بعد جفوفهما أو ارتفاع الحساب فقط وهو أصحها مثل قوله(ع): (وإنما جعلت السعفتان لذلك فلا يصيبه عذاب ولا حساب بعد جفوفهما إن شاء الله)، وقوله(ع): (وإنما الحساب ما دام العود رطباً) ومنها ما دل على تجافي العذاب عنه ما دامت رطبة، ومنها ما دل على تخفيفه ما دامت رطبة والمراد بالتجافي التباعد المستلزم التخفيف كما هو مفاد الطائفة الثالثة وبهذا نجمع بين الروايات فإن تباعد العذاب غير ارتفاعه بالمرة قال في الوافي: «فلعل السر في وضع الجريدة مع الميت إنه لمّا كان جسده لم يبق فيه أثر للحياة جعل معه عود رطب يكون فيه أثر الحياة من النفس النباتية التي كانت فيه قبل القطع فإنه ما دام رطباً كان أثر تلك باقياً فيه». ثم ذكر العلة في تخصيص النخل ثم قال: «وإنما يجعل ذلك معه يكون إشارة إلى أنّه وإن مات أو هلك فإنّ مونه ليس موتاً أبدياً ولا عذاباً دائماً بل هو قابل للحياة الأخروية والنعيم الأبدي بما يكون معه من أثر الحياة كالنطفة التي في الرحم فإنها تقبل الترقي والكمالات في الحياة الدنيوية والإنسان في البرزخ حاله كحال النطفة يترقى طوراً عن طور فأفهم ذلك موفقاً». وهذا السر الذي ذكره مع إنه لا يتفق مع مفاد الروايات لا يصلح لأن يكون سراً لوضعها.

الموت الناجز والحياة الكاملة درجات من الحياة وأطوار من الموت وإذا صح في القياس العلمي إنّ الميت يتمتع بحياة ناقصة مدة من الزمن كما يشعر بذلك صلاة الهديّة ليلة الدفن أمكن أن يلتذ ويتألم ويعذّب وينعم عن طريق جسمه قبل موته الناجز وليست عنده قوّة حاجزة تحجزه من بطشة اللّه الكبرى ولا فترة مريحة من توالي الهلكات ولا دعة مريحة فلا يترك وشأنه، فليس من العدل الألهي أنّ لا يجازى المتمرّد العاصي.

وبهذا البيان تنحل عنك جميع الشبهات فإنّه إذا كان للموت طبقات ومنازل ودرجات وليس عندنا شاهد ولا دليل على انه في أوّل مرحلة من مراحل الموت تذهب الرّوح من هيكلها وتنصرف عن بيتها، وإذا اقتضى موت جملة من خلايا جهاز رئيسي في الجسم انفصال الرّوح ومفارقتها لزم منه أن يكون موت عضوٍ بادٍ موجب لذلك، فإن كان حياة جميع أجزاء الجسم شرطا في تعلق الرّوح بالبدن فأيّ فرق بين موت القلب ووقوف الرئتين وموت الرجلين أو اليدين، فكما إنّ موت اليدين أو الرجلين لا يؤثر في انفصال الرّوح ومفارقتها فكذا موت القلب والرئتين وإن لم تكن حياة المجموع شرطاً في تعلق الرّوح ويكفي في بقاء تعلقها به وجود حياة في قسم من أجزائه. فهذا ما أردنا إثباته وفرض تعلق الرّوح بموضع خاص من الجسد وانعقاد ارتباطها به بخلية معيّنة فيه ظنّ لا يساعده برهان ولا يعضده دليل. وإذا كان هذا حال سريان الموت في الجسد، وإنّ أوّل درجة من الموت لا تقطع تعلق الرّوح به فهذا البدن الحيّ الميت ذو روح حساسة متألمة ويكفي ما فيه من حياة وما في روحه من إدراك وشعور لأن يوجه

إليه السؤال ويفاجأ بتلك الأحوال. وأمّا ما ذكره شارح المواقف من أنّ اللّه تعالى يعيد إلى الميت نوعا من الحياة قدر ما يتألم، ولكنهم توقفوا في عود الرّوح وما يتوّهم من امتناع الحياة بدون الرّوح ممنوع، ووافقه فيه أمين الإسلام مع اختلاف يسير لا نعرف له وجهاً وليست هناك إعادة للحياة أو الرّوح بل الحياة والرّوح كلاهم مستمران وباقيان إلى حين الموتة الناجزة، بل الذي يظهر من بعض الرّوايات عود الرّوح دون الحياة وإن كان المراد من عودها إمساكها في مواضع الإحساس والشعور وحصر تعلقها في مواطن الإدراك والتصور وهذا معنى ما يوجد في بعض الروايات من إلقاء الرّوح عليه إلى حقويه.

هذا والأخبار والأحاديث تدّل بصراحة ووضوح، إنّ عذاب البرزخ ونعيمه ليس كله واقعاً على الجسد، فمنها ما يدّل على وقوعه على الرّوح إلى يوم المعاد، ومنها ما يدّل على وقوعه على الجسد، ومنها ما يدّل على وقوعه عليهما. ولم أجد فيما ظفرت به من الأخبار والرّوايات حتى مرسلاتها وضعافها ما يدّل على استمرار العذاب على الجسد حتى المعاد، والجمع بينها لا يكون إلاّ بما ذكرناه من أنّ عذاب القبر وثوابه لا يتجافى إلا بالموتة الناجزة، ثم يتحول الأمر إلى الرّوح وينصرف إليها وهي باقية مخزونة في علمه إلى يوم حشره سواء حنطنا الجسد فدام أعواماً وقروناً أم تلاشى من حيث كان ثم كما بدأ به يكون، ونعني بعذاب

القبر ما يكون قبل الموتة الناجزة سواء قبرنا الميت أو أحرقناه[١] حتى صار رماداً تذروه الريّاح وبعذاب البرزخ ما يكون بين القيامة الصغرى والكبرى، وكلما نفرضه ونتصوره من وسائل الإهلاك والموت لابّد فيه من الموت التدريجي، والحياة لا يمكن أن تنطفئ مرّة واحدة كما ينطفئ السراج كما أشرنا إليه فعذاب القبر هو العذاب الذي يكون قبل الموتة الناجزة سواء دفنا الميت في لحده أو صلبناه في الهواء أو ألقيناه حياً في لظى فهلك فيها وثوى.

ولا يعدم الرّوحي تخريجاً علمياً ليس للماديّ سبيل لإنكاره لأنه من فرض المادي نفسه فإنا إذا استطردنا البحث في البرزخ وقال لنا المادي: (النفس روح لاحس لها ولا تأثير إلا إذا اتحدت بالمادّة فكيانها بالمادّة وللمادّة وجدت فكيف يمكن بقاؤها بعد انفصالها من البدن ولم يشعر بوجود الرّوح قبل اتحادها بالمادّة وبعد مفارقتها؟ وما من روح شعرت بكيانها قبل أنْ تلبس المادّة؟ وما من روح أثبتت وجودها وشعورها بالوجود بعد أن خلعت عنها ثوب المادّة؟)، فإنّ للرّوحي أن يقول: (قبل ذلك إنّه يكفينا من الشعور بالرّوح، الشعور بها إذا اتحدت بالمادّة وكوننا فاقدين للشعور بها بعد انفصالها عنها لا يوجب نفيها بعد أن كنا شاعرين بها بعد اتصالها بالمادّة على إننا شاعرون بها بعد انفصالها عما يسميه

---

(١) عادة إحراق الموتى تذكرها تواريخ القرون الأولى للبشر وهي عقيدة إلهية لبعض الأمم وقد شاعت في أوربا بدلاً عن الدفن وقد بلغ عدد الأماكن المعدة لهذا الفرض(١٢٧) منها تسعون تقوم بأداء العمل الذي أنشأت من أجله ومن بينها ما يعد من الآثار الضخمة الفخمة في بنائها وأسبق الناس في إحراق جثث موتاهم الفرنسيون فقد بلغ عدد الجثث التي أحرقوها من أغسطس عام ١٨٨٩ إلى آخر عام ١٩٠٤ نحو ٧٢٣٣٠ جثة بالمكان المعد لذلك في باريس.

مادّة، أي ما كان منظوراً ملموساً ففي علم الاستحضار ومناجاتها كفاية، وقد شعرنا بفضل ذلك العلم بها بعد انفصالها، ولئن سلمنا له قوله، إنّ كيانها بالمادّة، فنحن نعتمد في دحضه على الفرض الذي اضطررنا إليه في تعليل المظاهر الطبيعية واقتنع به علماء الطبيعة اجمع)، قال أحد أساتذة الغرب[1] في خطبة له: «إننا نبحث في الأثير والمادّة والقوّة وحواسنا لا تدرك وجود الأثير فنضطر أن نفرضه فرضاً وله شأن في أكثر الأعمال التي نعرفها أو فيها كلها فبه نربط السيارات حتى يصير منها النظام الشمسي، وبه ترتبط جواهر المادّة حتى تصير أجساماً مدركة بالحواس واكثر مظاهره في النور والكهرباء والمغناطيسية لأن فعله فيها يظهر على أشده أفلا يحتمل إنّ الحياة تستعمل الأثير أو لا يحتمل، إنّ ما نجده من الصعوبة في إدراك العلاقة بين الحياة والمادّة سببه إننا نغضي عن الأثير لأنا لا ندركه لكن المباحث الجديدة تدلّ على أنّ له شاناً كبيراً جداً». ثم قال: وهنا نرى ما يصح أن يفسر ارتباط الحياة بالمادّة ولو كان ارتباطاً غير مباشر فقد اعتقد العلماء أنّه يجب أن يكون للحياة جسم مادّي ليكون آلة وحاملا لها أيّ يجب أن يكون لها ارتباط بما نسميه بالعالم المادّي ولكن العالم المادي غير خاص بالمادّة بل يشمل النور والكهربائية والأثير أيضاً. ويعتقد علماء الحياة أن الحامل المادّي للحياة يجب أن يكون مادّة، وادّعى بعضهم إنّ الحياة من وظائف المادّة، وما ذلك إلا لأنهم لم يكونوا يعرفون إنّ للمادّة حالات أخرى غير الحالة التي نراها، ثم قال: «لأننا إذا قلنا إنّه لا يوجد في الكون إلاّ الأجسام الماديّة،

(١) أوليمر لدج.

رأينا أمامنا مسائل لا تحل مثل مسألة فعل الشمس بالأرض وانتقال كل فعل من مكان إلى آخر في الفضاء سواء، أكان الفضاء واسعاً يقاس بالملايين من الأميال أم ضيقاً ففي هذه المسائل جاء فرض الأثير من الضروريات فإنّ جواهر كل جسم من جماد أو نبات أو حيوان تتماسك بعضها ببعض بواسطة الأثير الذي يصل بينها ولولا ذلك لكانت جواهر المادّة نقطاً متفرقة كالغبار الطائر في الهواء».

فإذا كان هذا الموصل المنتشر في كل مكان موجوداً فعلاً فيبعد عن الظن أنّ تكون الحياة قد تغاضت عن استعماله لأننا نراها لا تغض عن استعمال أيّ شيء من الأشياء حتى لا تأنف من أن تزّج نفسها في كل قمامة وتغتنم كل فرصة تمكنها من التقمص في جسم من الأجسام فلا يعقل أنها تغضي عن استخدام الأثير، نعم إننا لا ندرك وجودها قبل ما تصل بمادّة من المواد التي نعرفها ولكن قد توجد متصلة بشيء لا نعرفه ولا ندركه بحواسنا مباشرة هذا أمرٌ فرضي ولكن كانت الحقائق ترينا إنّ شيئاً مجهولاً على نوع ما ولا يدرك بالحواس تستطيع أن تستخدمه، وجب أن لا نستغرب ذلك ولا نعده مستحيلاً.

ويقول علماء الحياة: لابّد للحياة من جسم يحملها وهذا مسلم ولكن لا يلزم أن يكون مادّة في شكل من أشكالها المعروفة بل يكون ابسط من المواد المعروفة والمادّة المحسوسة صورةً من صوره وهذا على نوع ما يسميه علماء الدين جسماً روحانياً أخذت الأدّلة تدّل على أنّه قد يكون شيئاً حقيقياً وإنّ الذين غادروا الحياة الدنيا وتركوا أجسامهم الماديّة لا يزال

لهم ما يسمونه أجساما وفيها ذاكرتهم وصفاتهم وشخصيتهم محفوظة لا يعتورها خلل وإنْ كنّا لا نتصور صورة واضحة لعلاقتهم بالزّمان والمكان والجسم المادّي، الذي لنا هاهنا ونحن نستعمله دائماً هو آلة وقتية غير وافية بالمراد بل هو معرض لكل ما يصيب المادّة من الفرك وقلة المرونة ومن الانحطاط والدثور ونحن لا نستعمل الجواهر الفردة مجرّدة وإنما نستعمل مركباتها وهي تتغير دواماً وقابلة للانحلال مثل المواد المشعة، ومن المحتمل إنّ انحلالها يولد القوّة اللازمة لأعمالنا. أما الأثير فتام لا يتلف ولا ينحلّ ومرونته تامّة ولا فرك فيه فإذا اعتمدنا عليه فقد نجونا من وسائلنا الوقتية الناقصة ويصير وجودنا أبديّاً خالياً من الشوائب والدرجات التي نرتقي فيها حينئذ تفوق الوصف، وكل ما نعمله الآن بالامتحان هو إننا ننتقل من الحياة الدنيا إلى الأخرى، ويظهر لك من كل ما قدّمنا روايته إنّ الأثير حقيقة راهنة لابّد من فرضها وبأنّ الروح متصلة بأجسامنا بواسطته ويمكن لنا أن نسميه بـ(المادّة المجرّدة) فإنّه يجمع خواص المادّة والمجرّد وإنّ الرّوح قائمة به ومنتشرة في مقدار من ذراته هي كيانها، وإذا انفصلت الروح عن الأجسام المادية بقيت سابحة في أعماق الأجواء في قوام مؤلف من دقائق الأثير ويمكن أن تكون الروايات المأثورة عن الأئمة الهداة الدالة على أنّ الرّوح بعد مفارقتها الأبدان تبقى في قوالب وأجساد مثالية إشارة إلى بقائها في ذلك القوام المؤلف من دقائق الأثير الرأي الذي هو غاية مبلغ العقل البشري في آخر قرونه فإنّ الذي يظهر من الآيات الكثيرة والأخبار المستفيضة هو إنّ النفس باقية بعد الموت أمّا معذبة أو منعمة أو ملهى عنها وإنها تتعلق بعد

ذلك بأجساد مثالية لطيفة مضاهية في الصور للأبدان الأصلية وقد تصل إليها الآلام ببعض ما يقع على الأبدان الأصلية لسبق تعلقها بها وإنها باقية فيها إلى يوم الحساب.

ومن تصفح الرّوايات الواردة هنا عن مصابيح الهدى ونوار الدّجى علِم أنهم(ع) قد أتحفوا العالم بأنوار علومهم وبدائع معارفهم بحقائق لم يتوّصل إلى مبادئها العقل البشري إلاّ بعد جهود طويلة، وإنّنا نرى الحقائق العلمية على مدرجة الظهور فما أغمض سرّه من تلك الآثار المحمديّة سوف يتمجد مستقبل العلم بحله وكشفه، اللّهم اجعلنا في زمرتهم ومن أشياعهم واتباعهم وممن يقتص آثارهم ويتمسك بولائهم.

هذا وإذا نظرت في الأسفار المدونة في هذه الأبواب وما فيها من آراء متضاربة ودعاوي متناقضة وفروض وظنون مما لا يوجد له شاهد في القياس العلمي والاستنتاج النظري يعتريك الملل ويكون نصيبك منها الخيبة والفشل وإذا قصرت ما في كتابي من الآراء على ثمرة عقلي ونسبت ما فيه للنفسي أو اعترفت إنّ كلّ ما فيه فإنّه رواية وحكاية فإنّي صادق في الحالين فقد تحدّيت الوقوف على أفكار من سبقوني إلى الكتابة في هذا البحث، ونظرت في أشتات وصنوف من المؤلفات فعلق بذهني منها نبذ وآراء ثم نسجته على تلك الأنوال ومتحته من تلك الكواظم فالفضل راجع أليها فمنها أستمد وأستغل ومن تلك البذور هذا البيدر وما توفيقي إلاّ باللّه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

شرع في تأليفه مؤلفه محمد رضا بن الهادي من آل الشيخ جعفر

كاشف الغطاء طاب ثراه في غرّة شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٦ هجريّة وأنجزه في سلخه وذلك من بركات هذا الشهر المبارك وروحانيّة باب مدينة العلم مولانا أمير المؤمنين صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى أولاده المعصومين آمين.

الفهرس

مقدمة ٧

الاكتشافات والاختراعات، براهين على عظمة الخالق ١١

النجف الأشرف والنظريات المادية ١٢

منهاج التدريس في النجف الأشرف ١٤

سبب تأليف الرسالة ١٦

مدخل الشبهة ١٨

الإقبار في بعض المواضع المقدسة يدفع عذاب القبر ١٩

الأسئلة وتحليل الشبهة في البرزخ ٢١

الكلام في الروح ٢٤

سر الغموض في المسألة ٢٦

أهم مباحث الروح ٢٧

إثبات الروح ٣٠

مذهب الروحيين وتعليل ظواهر الحياة ٣٤

إرتباك الماديين ٣٩

التنويم المغناطيسي ٤٥

استحضار الروح ٤٨

استحضار الأرواح عند الماديين ٥١

أعمال الروح والجسد ٥٦

الإلهيون والماديّون وآراؤهم فيما وراء الطبيعة ٥٩
مباحث المعاد ٦٦
دلالة الوجدان على المعاد ٧٠
البرهان على المعاد ٧١
إتقان النواميس المادية ٧٣
استئثاره تعالى بعلم الغيب ٧٦
فذلكة ما تقدم ٧٧
استفهام خيالي يقربنا من الحقيقة ٧٨
الحكمة في الوقائع وقياس الفطرة ٧٩
أقوى حجة لمنكري الميعاد ٨٤
آخر ما سمعناه في ردها ٨٦
دفعنا لهذه الشبهة بالنظر العلمي ٨٧
البحث في كتب الفلسفة ٩٠
الكلام في البرزخ ٩٤
البرزخ في القرآن الكريم ٩٦
أخبار البرزخ ٩٨
متون الروايات الواردة عن الأئمة الهداة (ع) ٩٩
البرزخ في كلمات العلماء ١٠٢
الكلمات التي سبق ذكرها ١٠٩
الفهرس ١٢٥